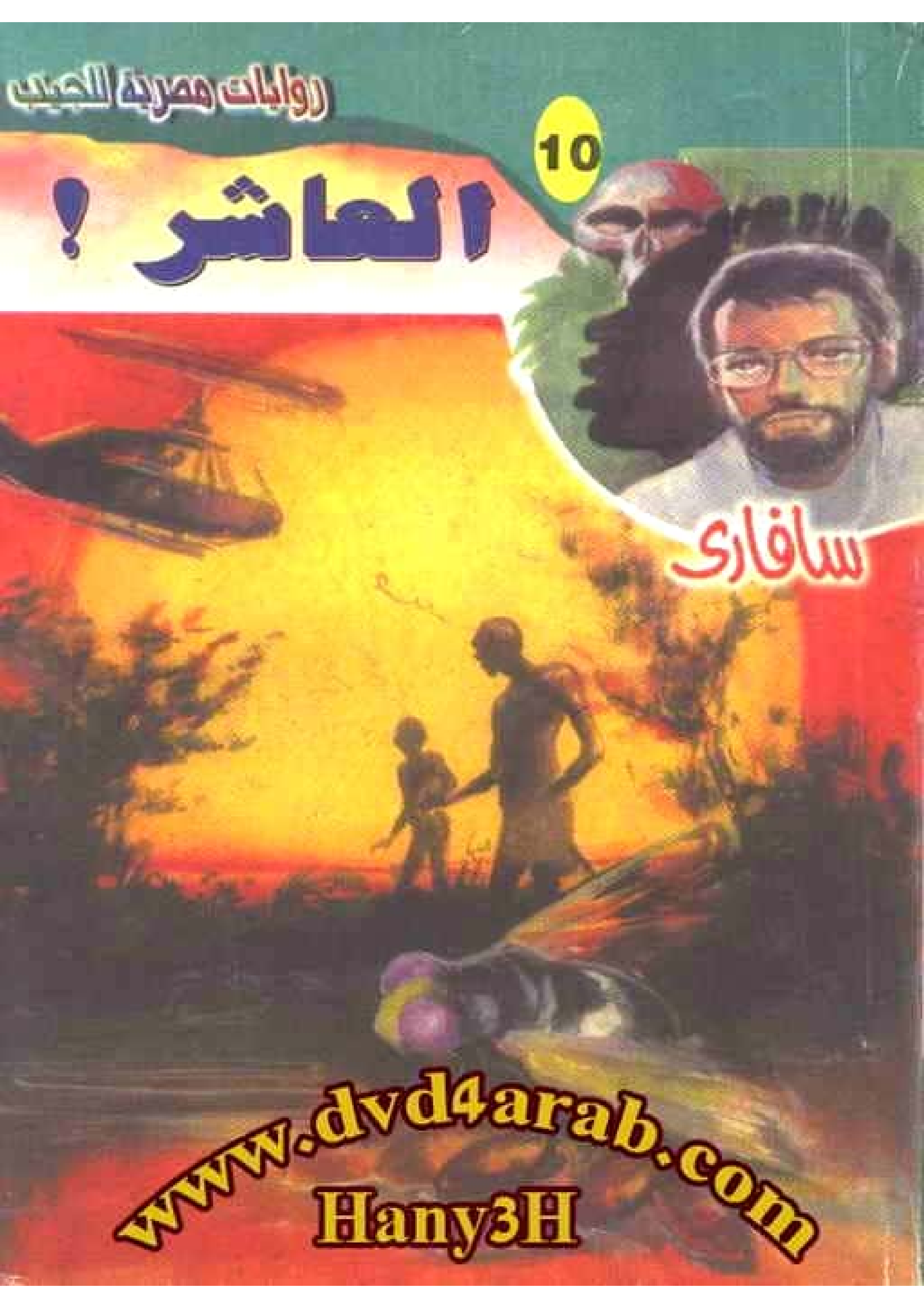

روايات مصرية للجيب
10
العاشر !
سافاري
www.dvd4arab.com
Hany3H

# مقــــدمـة

( سـافارى ) مصـطلح غربى تـم تحريفه عن كلمــة ( سافريّة ) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ ( سافارى) فهم يتحدثـون عـن رحـلات صـيد الوحـوش فى أدغــال ( إفريقيا ) ..

لكن وحـدة ( سـافارى ) التـى سنقابلها ها هنـا كـانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابـات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنـا الـذى سنقابله دومًــا ، ونألفــه ، ونتعلـم أن نحبه هـو د. ( عـلاء عبـد العظيـم ) .. شـاب مصـرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاتـه بعيدًا وسط أدغـال ( الكـاميرون ) ، وفـى بيئـة غريبــة وأمـراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفـى هـذه الروايات نقرأ مذكرات د. (عــلاء ) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضــارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة ( سافارى ) فى ( الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب ( السافانا ) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق ( سافارى ) ..



# ١ ـ اذهب هناك !

كان يومًا عاديًا جدًا فى وحدة ( سافارى ) ، من تلك الأيام المملة التى بدأت أحبها .. حقيقة أن عين ابن آدم لا يملؤها سوى التراب ، ومن العسير إرضاؤه بأى شكل ..

قد كنت دومًا أجأر بالشكوى من الملل ، ومن وتيرة الحياة التى لا تتغير ؛ فإذا ما حدث شىء ما ، مثل ساحر إفريقى تصرّ جثته على النزهة ليلاً ، أو مرتزقة يبغون ذبحنا ، أو طبيبة كندية ترى موتى يصرخون طيلة اليوم ، أو مجنون يحاول قراءة أفكار المحتضرين .. إذا حدث هذا ملأت الدنيا صراخًا من أجل الأمان المفقود ، ومن أجل مهنتى التى لم أعد أمارسها ، ومن أجل .. ومن أجل ..

اليوم قررت أن أستمتع بكل لحظة مملة تمرّ بى .. وأحمد الله على نعمة السلامة والعافية ، والقدرة على إرسال الراتب لأمى من آن لآخر ..

أقول إنه كان يومًا عاديًا حتى السابعة مساءً ..

ماذا يحدث دومًا فى السابعة مساءً ؟ لابد أنكم تعرفون الآن ..

يستدعينى البروفيسور ( بارتلييه ) مدير الوحدة إلى مكتبه ليخبرنى بخبر مقيت ، ويكلفنى مهمة تحيل حياتى جحيمًا .. هذا شيء محتوم ، وقد تمّ حرفيًا بنفس الدقة التى تتمّ بها المآسى الإغريقية ..

أعيرونى آذانكم لأن ما سأقوله هو سرّ بيننا ..

* * *

كان البروفسور جالسًا إلى مكتبه منهمكًا فى ملء مجموعة من الأوراق ، وكان يجلس معه رجل ثقيل الظلّ أعرفه جيدًا ، لأن المرء ينسى ثقلاء الظل بصعوبة بالغة على كلّ حال .. هذا الرجل ثقيل الظلّ يدعى دكتور ( كليف ) ، وهو أمريكى فى الأربعين من عمره ، يمارس شيئًا ما فى منظمة الصحة العالمية ، وعلاقتى به سطحية جدًا .. وكان ككل الأطباء الأمريكان يحرص على ارتداء ربطة عنق لا يتناسب

لونها مع قميصه ، مع لحية شقراء نصف نامية ، كأنه راهب العلم الذى لا يكلّ .. كان يرمقنى فى فضول كما كنت أرمقه ..

قال ( بارتلييه ) دون أن يرفع عينيه إلى وجهى ، وهو منهمك فى أوراقه :

ـ « هذا هو دكتور ( عبد العظيم ) ، وهو يصلح بالتأكيد .. »

ـ « أنا أعرف الدكتور ( عبد العظيم ) .. لقد كنّا نعمل معًا فى موضوع الحمى النزفية إياها .. لقد كانت بحقّ أيامًا جميلة ! »

هذا ما توقعته على كل حال .. بالتأكيد يبدو ما أراه أنا كارثة ، أيامًا جميلة بالنسبة لواحد ثقيل الظل مثل ( كليف ) هذا ..

قال ( كليف ) وهو يتفحصنى كالنخاسين ، حين كانوا يتفحصون العبيد الذين أسرهم القراصنة فى مرفأ ( ماراكيبو ) :

ـ « يبدو لى صالحًا .. »

شكرته فى رقة على حسن ثقته بى .. ولكن .. صالح لأى شىء بالضبط ؟ هؤلاء القوم قد قرروا ممارسة أكل لحوم البشر على ما أظن ..

قال (بارتلييه) وهو مستمرّ فى توقيع الأوراق :

ـ « إنه طبيب متوسط المستوى.. ربما يعود هذا لصغر سنه وليس لأنه أحمق .. لكنه يحوى بعض دماء الشباب فى عروقه ، وهو متحمس لحدّ ما .. ثم إنه كشف عن براعة فائقة فى البقاء حيًا حتى اليوم .. لا أرى ما يمنعه من البقاء حيًا هذه المرة أيضًا .. »

ـ « جميل .. جميل .. لسنا بحاجة لبراعة طبيب هاهنا.. نحن بحاجة لحماس شابّ .. »

راح (بارتلييه) يتهجى حروف اسمى كى يدونها على الأوراق ، ثم قرع الجرس ، فجاءت السكرتيرة الحسناء .. ناولها الأوراق وأمرها أن تطبع خطابًا رسميًا يحمل اسمى ..

ـ « ردّى عليهم وأخبريهم أن د . (عبد العظيم) قادم خلال ثلاثة أيام .. »

ثم وجَه الكلام إلى ضيفه ثقيل الظلّ قائلاً ، وقد بدا عليه الرضا كمن أنجز مهمة شاقة على خير وجه :

ـ « هل من شىء آخر ؟ »

ـ « حاليًا .. لا .. إن د. ( عبد العظيم ) سيتلقى دورة مكثفة بالطبع قبل أن يبدأ ، وإن كانت المشكلة غير جديدة من نوعها على كلّ حال .. أنتم تواجهون مثلها ، وربما بنفس القسوة .. أليس كذلك يا د. ( عبد العظيم ) ؟ »

هززت رأسى فى ثقة وتعب :

ـ « آه .. بلى .. بلى .. الكثير منها فى هذه الأيام يا سيدى .. لكننا لم نكفّ عن المقاومة يومًا ! »

ـ « هذا يجعل المهمة أسهل .. لكن لا تنس جرعاتك الوقائية .. »

وابتسم البروفيسور ( بارتلييه ) فى رفق وسألنى :

ـ « هل لديك من أسئلة يا ( علاء ) ؟ »

هززت رأسى أن لا ، ونهضت ، وكنت أغلى غيظًا بالطبع لهذه المعاملة .. من أبسط حقوقى أن أعرف

بالضبط ما يُراد بى ، لكنى لا أطيق أسلوب المعاملة كالشىء يوضع هنا أو هناك .. أسلوب (جعلوه فاتجعل ) الشهير ..

وكان انتقامى الوحيد هو أننى لم أوجّه لهذين أىّ سؤال من أىّ نوع .. بالطبع كانا ينتظران أن أستفهم فى فضول عن كل تفصيلة ، وكان هذا يرضيهما .. لكني أحجمت .. أحياناً يكون رفض السؤال عن شىء مهيناً مستفزّاً لمن يرتقب أن تسأله ..

على أننى على الباب فطنت لما أنا مسوق كالشياه إليه ، فتساءلت :

ـ « لحظة يا سيدى .. لا أريد أن أكون سيئ الأدب ، أو أستغل كرمك أكثر من اللازم ، لكنى كنت أتمنى لو عرفت شيئاً عن هذا الذى أصلح له !! »

هنا فطن الرجلان لهذه الحقيقة ، وانفجرا يضحكان .. كانا منهمكين إلى أقصى حدّ ، حتى حسبا أننى بالتأكيد قرأت أفكارهما ..

قال ( بارنييه ) فى مودة شفوق :

ـ « حقًا يا (علاء) .. من الغريب أننا لم نتنبه لهذا .. اجلس يا بنىَّ .. أنت تعرف أن التنسيق بيننا وبين منظمة الصحّة العالمية واه جدًا إن لم يكن معدومًا .. وقد قررت أن تنتهى هذه المشكلة بنوع من طقوس تبادل الأسرى ! ستذهب لتعمل لدى منظمة الصحّة العالمية فى (بوركينا فاسو) ، وذلك ضمن مشروع القضاء على عمى الأنهار ! »

صحت فى رعب وأنا أثب من مقعدى :

ـ « بوركينا فاسو ! و (سافارى) يا سيدى ؟ هل تستغنون عنى ؟ »

ـ « لا تكن طفلاً .. إننا نعيرهم إياك لفترة .. ربما لثلاثة أشهر أو أكثر قليلاً .. ويجب أن تقدّر هذا الاختيار كشرف عظيم .. إن سفير أية دولة لدى دولة أخرى ، يكون عادة عينة منتقاة من أفضل ما تمثله ثقافة وحضارة الدولة الأولى .. »

ـ « والمنفيون يكونون من أسوأ وأحطّ عيناتها .. فهل ما أنا بصدده نفى أم سفارة ؟ »

ـ « هى سفارة بالتأكيد .. »

ـ « وهل لى حقّ الرفض ؟ »

ـ « طبعًا .. أنت فى مكان يمارس الديموقراطية على أرقى مستوى .. لكن اسمح لى بدورى أن أملك حقّ إنهاء تعاقدك مع (سافارى ) !! »

ـ « حقًا شكرًا يا سيدى .. كنت أتوقع هذا .. »

وغادرت المكان محنقًا .. ففى البداية كنت شاة لاتعرف ما يُراد بها .. أما الآن فأنا شاة تعرف لكنها لاتملك الرفض ...

وفى غرفتى خطر لى أن الأمر ليس بهذا السوء .. بعض التغيير لن يضرّ أحدًا ، بل هو غالبًا مفيد .. وجوه جديدة ومشاكل جديدة ، ولربما أجر جديد أفضل (وإن لم أصارح نفسى بهذا ) .. ثم إن الوضع مؤقت على كل حال ولن يدوم ، ما لم أبد براعة غير عادية فى علاج عمى الأنهار ، تغريهم بالاحتفاظ بى للأبد .. وهو ما أشك فيه عامة ..

لم يشكّل عمى الأنهار مشكلة خطيرة قط فى ( الكاميرون ) ، وكنت أرى بعض حالاته لمامًا فلا تثير لدىّ اهتمامًا خاصًا ، أو إغراءً غير مألوف .. إنه

مرض ككل مرض آخر من تلك التى تزخر بها إفريقيا .. الرجل الأبيض احتلّ البلاد دهورًا معتبرًا هذا واجبه الحضارى ، وأطلق على ما يقوم به اسم ( عبء الرجل الأبيض White man's burden ) ، كأنما المسكين مضطرّ لهذا .. ثم غادر البلاد تاركًا الفقر والجهل والمرض والحروب الأهلية ، وعاد إليها بعد أعوام ليصيح فى دهشة : يا لكم من بائسين !! دعونى أعالجكم ! كيف وصلتم إلى هذه الحالة يا حمقى ؟ يا لكم من حيوانات !

سأرحل إلى ( بوركينا فاسو ) .. ولسوف أفعل ما ظللت أفعله هنا بنجاح تامّ : أبقى حيًا ...

سأرحل إلى ( بوركينا فاسو ) لأعرف لماذا أرسلونى إلى ( بوركينا فاسو ) ..

★ ★ ★

وكان الوداع مؤثرًا بحق ، خاصة وداع ( آرثر شيلبى ) الأستاذ الأمريكى المتحذلق .. لقد قال لى وهو يشعل سيجاره ، ويزيح خصلات الشعر الأشيب عن عينه :

ـ « آها ! أنت راحل إذن ؟ سى يا (See ya) » .

وهو قدر من العواطف الحارّة يفوق - كما ترون - قدرتى على التحمّل ..

وتمنى لى ( بسّام ) التونسى ألا أموت ، لأن كل من يذهبون لبوركينا فاسو يعودون بحمى تستمر عامًا ، ولا يشخصها أحد ، ثم يموتون وهم يتلوون ألمًا ! أحيانًا ينجو واحد أو اثنان ، لكنهما يصابان بما يشبه الخبال .. هكذا قال ..

أما ( برنادت ) فنصحتنى بالاحتراس من الفهود ، لأنها - هكذا قالت - تتسلل من النوافذ ليلاً لتمزق أعناق النيام ، فيموتون دون صراخ !

وتنبأ لى ( بيير ) طبيب العناية المركزة أن تجار العبيد سيقبضون علىّ ، ويبيعوننى للعمل فى مزارع القطن فى ( فلوريدا ) ! هكذا ستكون أمامى فرصة رائعة لكتابة كتاب عظيم مثل ( جذور ) كما فعل عمّنا ( أليكس هيلى )..

الخلاصة : هؤلاء مجموعة من الحمقى ، ويبدو أننى لن أفتقدهم كثيرًا .. ربما لن أفتقدهم على الإطلاق !

★ ★ ★

# ٢ـ مشكلة فى أمستردام

فرغ الطبيب من الفحص فجلس ( بيتر ) يرتدى ثيابه ..

قال الطبيب وهو يعابث سماعته كعادتهم حين لا يجدون ما يُقال :

ـ « لا توجد مشكلة ما .. ربما أظهرت الفحوص شيئًا لكننى لا أتوقع هذا .. »

ساد صمت رهيب .. الكابوس الذى كنت تخشاه منذ طفولتك : الطبيب يقول إنه لا مشكلة ، بينما أنت متأكد من مشكلتك تمامًا .. اللحظة التى يتخلى عنك فيها الطبّ تاركًا الحل بيدك ..

بعد قليل سألته وأنت ترتجف فرقًا :

ـ « هل احتمالُ الإيدز وارد يا دكتور ؟ »

ـ « لقد فكرت فى هذا .. ولسوف يخبرنا تحليل الدم بالجواب .. لكنى مبدئيًا أقول لك إن هذا العرض لم يوصف مع الإيدز ، إلا فى أحيان نادرة .. »

ـ « والجرب ؟ »

ـ « لا توجد آثار أنفاق مميزة فى جلدك .. لكن طبيب الأمراض الجلدية قد يرى ما لا أراه أنا .. »

وفى استسلام خضع ( بيتر ) لسحب عينات دم كثيرة منه .. وأجروا تحليلاً للسكر ، والفشل الكلوى ، وأخذوا عينة من جلده بحثًا عن أنواع نادرة من السرطان اللمفاوى ، لكن لا جدوى .. كل شىء على ما يرام ..

وفى النهاية قال له الطبيب :

ـ « المشكلة كامنة فى عقلك .. فتّش هناك تجد الإجابة .. إن للنفس ألعابها القاسية على كل حال » .

وكتبوا له أطنانًا من المهدئات ومضادات الهستامين .. لكن دون تأثير حقيقى ..

★ ★ ★

وكان ( بيتر ) يعرف جيدًا أن قصته تبدأ من رحلته المشئومة إلى ( بوركينا فاسو ) .. كان هذا منذ عام تقريبًا .. لقد كانوا بحاجة إلى خبير اتصالات ، يعرف ما يفعله من أجل السنترال الجديد فى ( واجادوجو ) .. وقد أرسلت الشركة الهولندية ( بيتر ) إلى هناك ..

نصحوه بأن يأخذ حقنة من ( البنتاميدين ) لأن مرض

النوم لا يرحم أحدًا ، كما جعلوه يتناول أقراص الـ (فانسيدار ) كى لا تفتك به الملاريا ، ونصحوه ألا يأكل أو يشرب ما لا يتصاعد الدخان منه .. كما أخذ تطعيمات الحمى الصفراء والتهاب الكبد ( أ ) و (ب ) والكوليرا ..

وبدأ ( بيتر ) يمارس عمله ، وأنجزه فى فترة قياسية غير عادية ، فقد كان مشوقًا للعودة إلى الحضارة وامرأته ( آنيا ) التى تزوجها منذ شهر واحد ..

حقًا كان عمله يضطره أحيانًا إلى الخروج للأحراش .. حيث كان يقوم بتمديد الأسلاك قرب القرى المجاورة للنهر ، مع فريق العمل الهولندى ، ولاحظ فى دهشة ، أن نسبة العمى فى هذه القرى تفوق المعقول .. أكثر الكبار مكفوفون ، حتى تذكر قصة ( بلد العميان ) الشهيرة لـ ( هـ.ج. ويلز )(*).. ولم يهتم كثيرًا بأن يسأل عن السبب .. هذه هى إفريقيا ؛ حيث تحت كل حجر ينتظر وباء أو ثعبان سام ، أو شىء لا تعرف ما هو لكنه مؤذ للغاية !

وبشكل ما انتهى العمل قبل موعده ، واستطاع

---

(*) قدمناها فى ( روايات عالمية للجيب ) .. الكتيب السابع عشر ..

العودة إلى ( أمستردام ) .. فقط لتبدأ متاعبه بعد شهور ، وبشكل غير مسبوق ..

* * *

كانت المشكلة هي الحكاك .. كان بحقّ يعاني حكاكًا شديدًا يتزايد ليلاً .. وفي الليلة الأولى عزا الأمر إلى البراغيث .. لم تكن هناك براغيث في شقته النظيفة العصرية ، لكنه تفسير يريح النفس على كل حال ..

كان مرهقًا منتفخ العينين حين ذهب للعمل ، وراح يمني نفسه بانتهاء اليوم ليحظى بنوم هادئ مريح ، لكن حين بدأت الساعات الأولى من المساء بدأ يشعر بالحكاك ، وارتجف ذعرًا وقد أدرك ما سيحدث .. هذه ليلة تعسة أخرى .. وفي هذه المرة فسّر الأمر بالحساسية .. ما كان له أن يلتهم شطائر السمك على العشاء .. واتجه إلى الصيدلية في الحمام ، وابتلع بعض أقراص الـ ( كلورفينيرامين ) ، ثم عاد للفراش .. إن الحكاك ينجم عن تأثير مادة الهستامين على أطراف الأعصاب .. كلنا يعرف هذا .. والحل الناجع لها هو مضادّ لمادة الهستامين.. صحيح أن هذا لن يجعل قيادة سيارته ممكنة غدًا .. لكنه على الأقل سيمنحه بعض الراحة ..

وقد كان ..

وفى الليلة الثالثة جلس فى الفراش ، وراح يهرش ويهرش كالقرود .. نزع منامته ، وراح فى جشع وانتشاء يمزق الجلد على صدره وتحت كوعيه .. كان يعرف أن الهرش يغرى بالمزيد من الهرش .. وهو ما يسميه الأطباء بـ ( متتابعة الحكاك ـ الهرش )(*) .. لكن ما باليدّ حيلة ..

وفى هذه المرة أضاءت ( آنيا ) المصباح الصغير جوار الفراش ، وسألته وهى تحك شعرها الأشقر المبعثر بإهمال على وجهها :

ـ « هل لديك مشكلة ما ؟ »

ـ « بل أنا فى أتمّ سعادة كما ترين .. إن الهرش طيلة الليل وعدم النوم يناسباني حقًا.. »

ـ « هل أصبت بالجرب ؟ »

ـ « لا أدرى .. لكنه احتمال لا بأس به .. »

دون كلمة أخرى أخذت وسادتها معها واتجهت إلى

---

Itch - Scratch Sequence . (*)



وفى هذه المرة أضاءت (آنيا) المصباح الصغير جوار الفراش ، وسألته وهى تحك شعرها الأشقر المبعثر بإهمال على وجهها : « هل لديك مشكلة ما ؟ »

غرفة أخرى .. ما كان ليلومها على كل حال ، فمن العسير أن تشعر براحة وهى غافية جوار زوج أجرب ، حتى والتهمة لم تثبت عليه بعد ..

اتجه إلى الصيدلية فابتلع قرصين من مضادّ الهستامين ، وأزمع أن يزور الطبيب غدًا ...

★ ★ ★

كما هى العادة لدى الأطباء هناك ، يهتم الطبيب كثيرًا بتاريخ السفر إلى الخارج ، وإلى المناطق الحارّة بالذات .. إن الهرش بعد العودة من إفريقيا يلقى علامات استفهام كثيرة ، منها اليرقة المهاجرة الجلدية.. نعم .. لقد ظل جنود أمريكيون كثيرون حتى اليوم ، وبعد عودتهم من المحيط الهادى ـ نحو خمسين عامًا ـ يعانون من الحكاك بسبب تلك اليرقات .. كما لا ننسى الجرب بالطبع .. ولربما تذكر طبيب بارع ، أن مرض النوم قد يسبب الحكاك فى بداياته ، وأن بعض أنواع تليف الكبد قد تسبب حكاكًا لدى المريض لمدة عامين ، قبل أن يتضح شىء ما..

الخلاصة هى أنهم بحثوا عن كل شىء فلم يجدوا شيئًا ..

وفى النهاية قالوا لـه بكثير مـن الرقـة والتهذيب : إنه بالتأكيد يعانى من مرض نفسى ما .. وبدأ يتردد على الأطباء النفسيين دون جدوى ...

★ ★ ★

بعد ستة أشـهر مـن العـذاب المتواصـل ، طلبـت زوجتـه الانفصـال .. ومـا كـان ليسـتطيع لومهـا لأن علاقته بها لم تعد تزيد على أن يهرش أمامها .. قليلة هى الأحلام الرومانسية التى يمنحها زوج ، لا يكف عن الهرش فى كل وقت ..

وكـان قد بـدأ يتعـاطى مـا هـو أقـوى مـن مضـادات الهستامين .. اعتـاد تناول ( الكورتيزون ) حتى انتفـخ وجهه وغدا كالغيلان .. وتعاطى المورفيـن ممـا جعلـه ينضم بجدارة إلى قوائم المدمنين ، وتكفل الإدمـان ، مع لمسة الجنون التى يسببها ( الكورتيزون ) عـادة ، بجعله زوجًا لا يطاق ..

ومـا لبث أن طُرد من عملـه لأن هـذه الشـركات لا ترحـم ، ولا تقبـل أعـذارًا مـن طـراز ( الهـرش المستمرّ ) ..

وهكذا نجد أن ( بيتر ) قد صـار فى سن الخامسـة

والثلاثين من عمره مُطلقًا بـلا عمـل .. مدمنـا مريضـا مهدمًا .. ويحتاج الأمر إلى فراسة مذهلة كـي تتعرف ذات الوجـه فـي الصـور القديمـة لمهنـدس الاتصـالات الهولندى الناجح الوسيم .. صور لـم يمرّ عليهـا أكثر من عامين ..

يجب أن نكون عـادلين ولا نقسو عليـه .. الحقيقـة هـى أن المنتحرين يكونـون فـى حالـة جنـون وقتـى ، تجعلهم ذاهلين عن أفعالهم .. لهذا لم يكن يقيّم الأمور بشكل صائب ، حين بحث عن المسدس فـى درج الثيـاب .. حين ألصقه بجبهته وضغط الزناد ..

فيمـا بعد سـيجد رجـال الشـرطة الجثـة ، ولسـوف يجدون جوارها ورقة تقول :

ـ « لقد بدأ كل شىء فى غرب إفريقيا » .

وفيما بعد سيقومون بتشريح الجثـة علـى سـبيل الروتين ، ولسوف يجد الطبيب الشرعى اليقظ ، ما يدله على مصدر معاناة هذا البائس ..

لكن هذا استطراد لا داعى لـه .. تـرى مـا الـذى أقحمه فى قصتنا هذه ؟ لابد أننى بدأت أجنّ بدورى !

★ ★ ★

# ٣ـ معطيات أخرى .. وجوه أخرى ..

أتحدث إليكم من ( واجادوجو ) ..

إن ( واجادوجـو ) ـ وأنتم سـادة العارفين ـ هى عاصمة ( بوركينا فاسو ) وأكبر مدنها ، ويربطها خطّ من السكك الحديدية بـ ( أبيدجان ) فى ساحل العاج ، وهذا شىء نادر فى غرب إفريقيا إن لم يكن مذهلاً .. يقومون حاليًا بمدّ هذا الخطّ إلى مناجم المنجنيز فى ( تامباو ) وساحل ( مالى ) ..

وتصل الخطوط الجوية الفرنسية بانتظام إلى ( واجادوجو ) و ( بوبو ـ ديولاسو ) ، لكن هناك شركة طيران أهلية واحدة هى ( أير بوركينا ) ..

ولا يصل الإرسال التليفزيونى إلا إلى ( واجادوجو ) ، ويعمل لعدّة ساعات لمدة ستّة أيام أسبوعيًا .. وهذا من حسن حظنا ـ على كل حال ـ لأن برامجهم قاتلة هاهنا ، ربما أسوأ من برامجنا ، لو كان هذا ممكنًا .. هناك

كذلك جريدة واحدة ، وإذاعة محلية تستعمل أربع عشرة لهجة إفريقية ..

هل قلت كل شىء ؟ ربما يجب أن أخبركم بشىء عن ( بوركينا فاسو ) نفسها ...

★ ★ ★

هات الأطلس الذى منحته لك وزارة التربية والتعليم .. هل تذكر أين وضعته ؟ لا لم يعُد تحت الفراش حيث تركته منذ أعوام ، ولا هو فوق ( الصندرة ) .. هل أعطته أمك لبائع الروبابكيا أو تخلّصت منه فى القمامة ؟ لا أرجو هذا لأنه خسارة حقيقية .. لا تاريخ من دون جغرافيا .. هكذا يردد الكاتب الكبير ( محمد حسنين هيكل ) دومًا ، وهو درس تعلّمه من ( ديجول ) ولم ينسه قط .. آه ! هل وجدته ؟ ـ الأطلس لا ( ديجول ) ـ عظيم !!

افتح معى الصفحة التى تظهر خارطة إفريقيا الشبيهة بجمجمة آدمية قتلها التصحّر.. انظر إلى غرب القارة .. هاهى ذى ( بوركينا فاسو ) التى اعتدنا أن نسميها ( فولتا العليا ) .. حتى عام 1984 ، حين جاء الكابتن ( توماس سانكارا ) رئيس المجلس

الثورى الوطنى ، ليبدل اسمها وعلمها .. صحيح أن الرجل أعدم فى انقلاب عسكرى تال ، لكن اسم البلاد ظل (بوركينا فاسو ) حتى إشعار آخر .. سترى أن (مالى ) تحدّها شمالاً وغربًا .. بينما تحدها النيجر شرقًا .. و( بنين ) و( توجو ) وساحل العاج جنوبًا ..

وستجد أن ثلاثة أنهار هى : فولتا الأحمر ( نازينون ) ، وفولتا الأبيض ( ناكانبى ) ، وفولتا الأسود ( موهون ) ، تجرى فى جنوب البلاد .. والبلاد مغطاة بالعشب والأشجار ، وفيها عدد لا يُحصى من أفراس النهر والأفيال والتماسيح ، وبرغم هذا تعانى كثيرًا من الجفاف .. وهى مشكلة بالنسبة لبلد يعيش فيه ـ عام 1995 ـ عشرة ملايين ونصف مليون نسمة ..

ثمة تفاصيل أكثر لكننى أفضل تركها لوقتها ، لأننى لا أريد أن يلحق هذا الكتيّب بمصير الأطلس .. كلنا نحب أن نعرف ، لكننا قد نمقت عملية التعلمّ ، خاصة حين تجىء فى غير موضعها ..

دعونا إذن نستكمل قصتنا ...

★ ★ ★

فى البداية ، أثار دهشتى منظر المركز الذى كان علىّ أن أقضى فيه الشهور القادمة .. صحيح أن شعار منظمة الصحة العالمية الأنيق كان مرسومًا عليه ، وصحيح أن عربات اللاندروفر المميزة كانت واقفة أمامه .. لكنه كان مبنى فقيرًا إلى حد مروع ، يختلف عن البذخ الذى اعتدناه لدى منظمة الصحة العالمية .. لا شىء سوى بناية متآكلة من طابقين تزينها ثقوب رصاص ، من انقلاب سابق ، كعادة الدول فى غرب إفريقيا .. وقد عُلّقت تحت شعار المنظمة لافتة بائسة كتبها خطّاط درجة ثالثة تقول : ( وحدة مكافحة عمى الأنهار ) ..

وفى الداخل كان ( كليف ) طبيب الصحة العالمية ينتظرنى .. كان ثقيل الظل كعادته ، مما طمأننى على صحته .. وقال لى وهو يصافحنى ، ويقودنى إلى غرفة خافتة الإضاءة :

- « رحلة طيبة بالتأكيد .. هل أنت مستريح فى فندقك ؟ لا بأس .. لكننا مضطرون إلى إبلاغك أنك مخيّر بين البقاء هناك على نفقتك الخاصة ، أو الإقامة

معنا هنا .. إن ميزانيتنا محدودة للأسف لا تسمح لنا بالفنادق الفاخرة .. »

تأملت المكان الفقير جداً الخالى من الأثاث ، وتساءلت فى تعاسة :

ـ « أنتم تقيمون هنا ؟ »

ـ « ليس هنا بالضبط .. لقد قام دكتور ( إبراهيم ) بإعداد ثلاث غرف لتكون مناسبة للنوم .. لا مشكلة هنالك فى الازدحام سوى رائحة الأقدام ! تذكر أن تغسل قدميك جيداً قبل النوم .. عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك !! »

بدت لى بداية مشجعة ، وغمغمت فى سرّى : ( الله يخرب بيتك ياللى فى بالى ) ، وكان من فى بالى كثيرين ، يدعون بـ ( بارتلييه ) وينتهون بعمى الأنهار ذاته ..

وهنا وجدت نفسى مع أعضاء فريق العمل كما يسمونه ..

كانوا مجموعة من جنسيات مختلفة ، لكن ثلاثة منهم سود من ساحل العاج .. وكان هناك فرنسيان

وإنجليزيان وسوفييتى ـ روسى إذا شئت الدقة ـ وكان منهم الودود المرح وثقيل الظل ، و منهم من هو قوى البنية ، كالمصارعين ، والواهن كالذبابة .. كلهم كانوا من أطباء المناطق الحارّة أو الأمراض المعدية .. وكان خمسة منهم من منظمة الصحّة العالمية ، وواحد من وحدة (سافارى ) فى ( كينيا ).. أى أن وحدة (سافارى ) ممثلة فى اثنين هاهنا .. كما كان هناك واحد من منظمة ( أطباء بلا حدود ) ..

بعد قليل انفتح الباب ودخل الدكتور ( إبراهيم سامبا )(*) ..

كان أسود البشرة بلون قشرة الباذنجان ، أقرب إلى الامتلاء ، له شارب كثّ ، ويضع عوينات غليظة ، ويرتدى قميصًا صيفيًا واسعًا .. وعلى خدّيه علامات الشقوق التى يتركها ساحر القبيلة على وجوه أبنائها ،

---

(*) ( إبراهيم مالك سامبا ) شخصية حقيقية ، وكل ما سنعرفه عنه هنا حقيقى كذلك .. وقد رُشح لرئاسة المنظمة عام 1998 ـ وهو شرف عظيم ـ بسبب جهوده الفائقة فى مكافحة العمى النهرى ، بالإضافة إلى مكافحة البيروقراطية والفساد والرشوة فى الأجهزة الحكومية ، لكن النرويجية ( جرو هارلم ) فازت بالمنصب .

كما يفعلون مع الخبز ( الفينو ) لينضج عندنا فى مصر .. وقدرت أنه فى الخمسين من عمره تقريبًا ..

بصوت غليظ حلقى ، وبفرنسية جيدة قال :

ـ « مرحبًا يا دكتور ( عبد العظيم ) .. أنت أحدث وجه ينضم لفريقنا .. وقد كان القدامى يتفاءلون برقم عشرة .. لذا يسرنى أنك الطبيب العاشر فى مجموعتنا الصغيرة هذه.. »

لم أكن أعرف عن الرجل سوى أنه مدير المشروع ، وأنه نجح فى أن يقنع منظمة الصحة العالمية بأن تتبنى برنامجًا للقضاء على عمى الأنهار .. وسرنى أن كل هؤلاء الأوروبيين والأمريكان المتغطرسين يعملون تحت إمرة رجل أسود ..

سألنى وهو يتخذ مكانه إلى خلف المكتب :

ـ « ما هى أخبار مكافحة البلهارسيا فى مصر ؟ »

ـ « لا أملك أرقامًا لأننى فى الكاميرون منذ فترة طويلة .. لكنها مشجعة دون شك .. إن العلاج بالأقراص قد .. »

ـ « هراء ! » ـ قالها وهو يتنفس بثقل من منخريه الواسعين كأنه منهك ـ « لقد علمتنا التجربة أن العلاج لا يقضى على وجود المرض أبدا .. التوعية الصحية تفغل ، والمكافحة الحقلية تفغل .. لو قضيتم على القواقع ، وعلّمتم الناس ألا تستعمل مجارى المياه غير الصحية ، لانتهت المشكلة .. »

تمنيت لو قلت له إن إصدار الأحكام والحكمة بأثر رجعى ، أمران سهلان على كل حال .. ماذا يعرف هو عن حجم المشكلة لدينا ؟ ثم عدلت عن ذلك ..

قال لى :

ـ « اليوم لن يكون هناك شىء .. ستستجمّ وتستريح .. لكننا غدًا سنتحرك فى وقت مبكر .. وعليك أن تتعلم إطلاق الرصاص فى أثناء القتال .. لا وقت لإعطائك دورة تمهيدية .. »

ـ « إلى هذا الحدّ ؟ »

ـ « بل وأكثر .. إن الوباء يتحرك بنفس سرعة طيران الذبابة التى تحمله .. » ـ ثم عقد كفيه قائلاً

بالإنجليزيـة وبلهجـة مضحكـة ـ « الآن إلى الراحـة يـا سـادة .. ( إن عمـلاً متواصـلاً دون تسـلية ، يجعـل جاك ولدًا غبيًا ) »

وللراحة التى تكلم عنها الأخ (سامبا) هى غرفة تنكرك بتخشيبة أقسام الشرطة لدينا ، فلا ينقصها إلا حضـرة الصـول النوبتجـى ، وجردل البـول ، وحفنـة مـن النشـالين الذين تم ضبطهم فى أتوبيس ( 305 ) وقت الذروة ..

مجموعة من الأسرّة الأرضية عددها نحـو أربعـة ، ملقـاة كيفمـا اتفـق علـى الأرض.. تـنزع ثيـابك وتلقـى بنفسـك كـالجوال علـى أحدهـا .. وهنـا تفهـم مـا قالـه (كليف) عن رائحة الأقدام ..

كنت مذهولاً من فقر المكان وسوء المعاملة .. لابد أن هنـاك خطأ مـا .. هذا نـوع مـن العقـاب ، ولا يمكـن أن يكون عملاً خلاقًا .. هذا فخ تم استدراجى له ..

جلس الفرنسيان يثرثران ، وهو مـا يزيـد الأمـر سوءًا بحق ، وقال لى أحدهمـا (وهـو ملتـح لـه شعر أشقر طويل يغطى كتفيه ، واسمه كما عرفت فيما بعد هو (إيـان سينيه ) :



٥ ٣ ـ ساقاه، عدد ١٠ العاشر ٢

ـ « لا تكتئب .. إن خبرات هائلة تنتظرك هنا ، ولسوف تعود كل ليلة منهكًا ، إلى درجة أن أى مكان يسمح بوضع أفقى سيبدو لك فاخرًا ! »

ـ « القبور كلها تسمح بوضع أفقى ، ولم يعتبرها أحد فاخرة .. »

ـ « حاول أن تنام الآن .. إن أمامك يومًا شاقًا يبدأ من مطار ( أودنين ) .. »

ـ « مطار ؟ »

ابتسم فى تهكم وتبادل نظرة مع صاحبه ، وغمغم :

ـ « طبعًا .. أليست حربًا ؟ لقد حسمت القوات الجوية كل الحروب الحديثة .. ولا يوجد ما يمنعها من عمل ذلك حاليًا .. »

ونمت ، لكنى فى بداية النوم ـ فى لحظة ما بين النوم واليقظة ـ رحت أتخيل نفسى طيارًا يحاول أن ينجو بطائرته من قذائف أرضية لا حصر لها ، تقذفها عليه دودة أسطوانية مريعة ....

★ ★ ★

## ٤ـ عن عمى الأنهار..

توجد دودة الـ ( أونكو سيركا فولفيولاس ) فى ستة وثلاثين بلدًا فى العالم ، منها اليمن وأمريكا الوسطى ، لكن 80 % منها يوجد فى إفريقيا ، فى منطقة تمتد من غابات الأمطار جنوبًا إلى غابات ( السافاناه ) شمالاً ..

إن الدودة خطرة بحقّ .. بل هى من أهم أسباب العمى فى العالم ؛ لكنها لا تنتقل من دون عائل وسيط أو ( ناقلة ) .. والناقلة فى حالتنا هذه هى الذبابة السوداء المسمّاة ( سيموليام دامنوسام ) ، وهو اسم لاتينى يوحى بالشرّ فى مقطعه الثانى ..

وتعيش الذبابة قرب الأنهار السريعة حيث تضع بيضها ، وهذا ما جعل المرض بحقّ يدعى ( عمى النهر ) ..

إن للدودة دورة حياة مملة حقًا من تلك التى تملأ كتب التاريخ الطبيعى المدرسية ، لكن فهم دورة الحياة

هذه ـ ومدتها عشرة أعوام فى الغالب ـ أمر لا مفر منه كى تعرف كيف وأين تقاومها ..

تعيش الدودة ـ ذكرًا وأنثى ـ تحت الجلد .. ثم تضع الأنثى تلك الديدان الوليدة اللطيفة ، التى نسميها بالـ ( ميكروفيلاريا ) ، التى سرعان ما تمتصها الذبابة ( سيموليام ) لتعيش فى أحشائها .. بعد هذا تنقلها من جديد إلى إنسان سليم .. وسرعان ما تنمو فى جسده خلال عام فى الأغلب ، ولا تكفّ عن التنقل كأنما تمارس عملاً مقدسًا .. وتضطر الدودة البالغة إلى أن تتوقّف قليلاً عندما تجد سطحًا عظميًا ، مما يجعل أنسجة الجسم تحاصرها بطبقةُ ليفية ، هى العُقد المميزة لهذا الداء الوبيل ..

تسبب الـ ( ميكروفيلاريا ) فى أثناء رحلتها الطويلة حكاكًا مريعًا فى الجلد ، وبرغم هذا قد يبدو الجلد سليمًا يحيّر الطبيب .. وفى بعض الحالات يحرم المريض النوم ، إلى حد أنه سبّب بضع حالات من الانتحار ..

أعتقد أننا الآن قد بدأنا نفهم محنة مهندس الاتصالات الهولندى البائس .. والذى لدغته الذبابة الوديعة قرب إحدى قرى الأنهار فى ( بوركينا فاسو ) ..

ويزداد سُمك الجلد مع الوقت ، ويغدو مجعّدًا شبيهًا بجلد الشيوخ ، وتظهـر عليـه تلـك البقـع التـى تذكـرك بجلد الفهـود ، وفـى بعض الحـالات يغدو من أعسر الأمور أن تميّز المرض عن الجذام ..

ثم تتدلى العقد اللمفاوية فى خنّ الفخذ إلى أسفل ، ولربما تلمس الأرض .. وهو مشهد غريب يميّز قبائل بأسرهـا فى غـرب البـلاد .. ويسمونـه بـ ( الأربيـة المتدلية ) ، وثمة قبائل أضافتـه إلـى مقـاييس الجمـال المعروفة لدى الذكر والأنثى !

لكن أعتى ما تسببه الدودة لم يأت حينـه بعد .. ألا وهو ما تحدثه فى العين من تخريب عـاتٍ .. سرعان ما تغزو الميكروفيلاّريا العين فتلتهب القرنيـة ، وتغزوهـا الأوعية الدموية ، توطئة لأن تفقد الرؤية كلية ، وبعد هذا تهاجم الشبكية وعدسة العين ، وتكون النهاية هى العمـى التـام.. وفـى بعـض القبـائل الإفريقيـة يصـاب المرء حتميًا بالعمى قبل سن العشرين ..

بقـى أن نقـول إن الـدودة فـى اليمـن مسـالمة نوعًـا لحسـن حظنـا ،.وتكتفـى بإحداث ما يسميـه اليمنيـون

باسم ( السـوداء ) .. وهـو أدنـى للمـرض الجلـدى ولا يؤثر على العينين بتاتًا ..

تمَّ القضاء على الذبابة فى (كينيا ) وبالتالى القضاء على الوباء فى شرق إفريقيا .. لكن الذبابة فى غرب إفريقيا مولعة بالسفر الطويل (نحو 300 كلم ) ، وفى جزء من هذا السفر تعتمد على الريح ، مما جعل علماء الحيوان يسمونها باسم ( بلانكتون الهواء )(*) ، ويتم رشّ أماكن تواجدها بالمبيدات .. لكنها تقاومها بشراسة ..

وقد قدرت منظمة الصحة العالمية ، أنها لن تجد نتائج واضحة ملموسة ، حتى تموت الديدان الكبيرة بالشيخوخة فى جلود الناس ، وهذا يحتاج إلى عشرين عامًا على الأقل .. لو تمكنا من منع أجيال جديدة من الإصابة بالعدوى ، فلسوف ينحسر الوباء خلال عشرين عامًا.. لقد بدأ مشروع المكافحة فى

---

(*) البلانكتون : هو الكائنات الميكروسكوبية التى تطفو بأعداد مهولة فى المياه العذبة والمالحة ، وتشكل الغذاء الأساسى للأسماك .. والمقصود بالتشبيه هنا أن الذبابة شرّ موجود فى كل مكان ، ولا مفر منه ..

أواخر السبعينيات ، وتتوقع منظمة الصحة العالمية أن تنتهى كلمة ( أونكو سيركا فولفيولاس ) فى عام 2002 ما لم يحدث شىء طبعًا !

إننا فى مصر لانعرف عمى الأنهار ، وهى من رحمة الله تعالى بنا .. ولهذا لا يخطر لنا أبدًا أن هناك كابوسًا يعانى منه غرب إفريقيا ، وأن منظمة الصحة العالمية تكافحه بأساليب هى أقرب إلى الحرب الحقيقية ، وبتكاليف لا يمكن وصفها..

إن الموازنة السنوية للمكافحة فى بداية التسعينيات - كما عرفت فيما بعد - كانت ثلاثين مليونًا من الدولارات !! تصوّر هذا ! ثلاثون مليونًا كل عام فى يد رجل واحد هو ( إبراهيم سامبا ) .. إنه مبلغ يسمح بكل شىء ، بما فيه السماح لى بالنوم فوق فراش طرىّ ( هذا بالتأكيد لن يؤدّى إلى استفحال عمى الأنهار فى إفريقيا ) .. لكن ( إبراهيم سامبا ) يختلف عن أى رجل آخر ، وهو يعرف جيدًا كيف يوظف كل مليم لديه من أجل المكافحة .. لا وقت لشراء الترف له ولرجاله .. ولو لم تكن الموازنة فى يد رجل صلب صارم مستقيم مثله ، لاختفت الأموال دون أن يعرف أحد أين ذهبت ، كما يحدث دائمًا فى هذه الظروف ..

يقول أستاذ الحشرات الأسكتلندى ( دوجلاس مار ) :

- « مع ( إبراهيم سامبا ) يمكن لمنظمة الصحة العالمية أن تطمئن على نقودها ، كأنما أودعتها فى مصرف .. »

★ ★ ★

كانت طائرات الهليوكوبتر متراصة فى مطار ( أوديين ) ، تبدو كالوحوش الجاثمة فى ضوء الفجر .. وقدرت أن عددها خمس طائرات .. وقال لى ( سامبا ) أن ألحق به إلى طائرة منها ، يبدو أنها طائرة القيادة .. كنت أحب طائرات الهليوكوبتر من الخارج ، لكنى أمقتها بشدة من الداخل .. تبدو لى هشة جدًا تفتقر إلى الاتزان اللازم .. وخجلت من أن أظهر ذعرًا .. ثم بدا لى أن الاحتراق فى طائرة فوق الغابات أمر مستبعد نوعًا .. ليس من أول مرة على كل حال ..

كان الطيار صاحب وجه أسمر كالعرب ، يلوك قطعة من اللادن ، وقد وضع منظارًا أسود ليبدو سمجًا .. راح يرمقنى متسائلا ، فقال له ( سامبا ) :

- « هذا هو دكتور ( عبد العظيم ) .. سيكون فى فريقنا هنا لفترة .. إنه مصرى وضيف من وحدة ( سافارى ) .. يمكنك أن تطلق عليه اسم العاشر لأسباب واضحة .. »

صافحنى الطيار وقال شيئًا ما ، ففسر لى ( سامبا ) :

ـ « إنه الملازم ( ماريو خونديراس ) من السلاح الجوى البرتغالى .. إنه يحييك بلغته .. وهذه الطائرة هى واحدة من إحدى عشرة طائرة فى حوزة المشروع .. والآن هيا بنا يا شباب .. »

ـ « هيا بنا .. »

وراحت المراوح تهدر حتى شعرت أن أذنىّ توشكان على الانفجار ، ثم اهتزت الطائرة كأنما تحاول التماسك ، وفى اللحظة التالية أدركت الحقيقة المروّعة : نحن فى الهواء !

شعور غريب أن ترى الأرض من موضعك هذا ، وأن يختلّ الإحساس بما هو (تحت) يديك .. يختلط (الأعلى) بـ ( الأسفل ) .. ولا تبقى هناك أية مسلمات .. أرى الأدغال لكن لا كأية أدغال ، بل كبقعة خضراء فى صفحة من ذلك الأطلس الذى أضعته .. ومن بعيد رأيت الطائرات الأخرى تتفرق ، كأنما لتؤدى كل منها وظيفة محددة فى اتجاه آخر .. طيور جارحة لكنها فى صفنا وليست ضدنا ..

كان ( إبراهيم سامبا ) منهمكًا فى تفحص الخرائط ، ورفع عويناته لأعلى ليرى أوضح ، ثم قال للطيار :

- « هذه الفتحة هناك .. »

كان تفاهم الرجلين تامًا لأن الطيار انحدر بطائرته ، عبر أضيق فتحة بين الأشجار يمكن تخيلها .. وكان من الوارد تمامًا أن تصطدم مروحة الطائرة بغصون الأشجار ، فلا تبقى لنا أشلاء ..

ومن تحتنا استطعت أن أرى غديرًا ذا مياه راكدة ، يجرى هنالك تحت الأشجار .. الطيار البرتغالى المجنون ينحدر بالطائرة أكثر فأكثر ، حتى توشك على ملامسة الماء ، ثم يضغط زرًا أمامه فتنطلق سحابة بيضاء من المبيدات لتغمر صفحة الماء ..

سألت د. ( إبراهيم ) عن هذا الذى يرشونه ، فقال :

- « اليوم نحن نستعمل الـ ( فكترون ) .. »

- « اليوم ؟ »

- « نعم .. لابد من تدوير المبيد المُستعمل .. إن لدينا سبعة أنواع من المبيدات حاليًا منها ( الأبات ) .. ( فوكسيم ) .. ( بى تى إتش 14 ) .. ( برمثرين ) .. ولا نستعمل المادة ذاتها طيلة الوقت كى لا تكون النبابة مناعة ضدها .. كذلك ننظر بدقة إلى مدى تسمم البيئة الطبيعية هنا ، وسرعة توالد الذباب .. »

كان الطيار قد توغّل بطائرته تحت حزام الأشجار ، إلى حد أننى رحت أتساءل عن الكيفية التى سيخرج بها .. ورأيته يلوك اللادن فى استهتار ، كأنه فتى من الذين يناورون بسياراتهم الحديثة فى شوارعنا ليلاً ، وفجأة ارتفع بالطائرة .. أقسم إن غصون الأشجار كادت تهشم الزجاج الهشّ لتمزق وجهى والطائرة ذاتها ..

بعد دقائق كان يحلّق بحثًا عن بقعة مائية أخرى .. الحق أنه مخبول ، لكن براعته وتحكمه لا يمكن وصفهما ..

وقال (سامبا) وهو يتفقد خرائطه :

ـ « لابأس .. لابأس .. مكانان أو ثلاثة من هذا النوع ، ولسوف نجد الوقت الكافى للعودة فى ميعاد الغداء ! »

* * *



# ٥ـ قرى الأنهار..

لم يكن ما قمنا به كافيًا بالنسبة للأخ المتحمس ( إبراهيم سامبا ) ، ولم يكن الغداء هو نهاية معاناتنا وبداية سعادتنا كالزواج فى الأفلام العربية ..

بعد الغداء انطلقت طائرات الهليوكوبتر من جديد ، متجهة إلى قرى الأنهار التى ابتليت بهذا الداء الوبيل ..

كنت جالسًا جوار النافذة أرمق المشهد الذى لا يوصف .. قرى أشباح .. حقول جرداء ومنازل من طين ، لكن لا أثر لمخلوق بشرى .. لا أطفال تلعب .. لا فلاحين يحرثون أو يحصدون .. لا كلاب ضالّة أو وحوش تبحث عن فريسة ..لا شىء .. وبدا لى المشهد كابوسيًا رهيبًا ..

سألته فى غباء حقيقى :

ـ « ألا يوجد أحد فى مكان ما ؟ »

ابتسم فى حزن ، وجفف العرق الذى احتشد على جبينه وقال :

ـ « نعم يا عاشر .. هذه هى المشكلة .. إن الفلاحين يفرّون من أراضيهم تاركين أخصب بقاع (بوركينا فاسو ) لأنهم يخشون المرض .. تصوّر هذا ! ربع مليون كيلومتر من أفضل الأراضى خالية .. أراض قادرة على إطعام 18 مليونًا من الجائعين .. إن مشكلة ( أونكو سيركا فولفيولاس ) هى بالدرجة الأولى مشكلة اقتصادية تهدد القارة فى مقتل ، وسط كل هذا التصحّر والجفاف .. »

لزمت الصمت إذ لم أجد ما يقال ..

ورحت أرمق عملية هبوط الطائرات وسط بحر من الأتربة ...

★ ★ ★

على الأقل كانت هذه القرية مأهولة بالسكان ..

إن أكثر القرى هنا من قبائل الماندى أو الفولتا ، والفولتا يضمون قبائل الموسى الذين يشكلون نصف السكان .. ومن المجموعات العرقية الأخرى : الفولانى ، واللوبى ، والبوبو .. وأكثر القبائل تتحدث الفرنسية ، لكن اللغة الأصلية توشك أن تنحصر فى السودانية والماندى ..

كانت محركات الطائرة مستمرة فى الدوران محدثة سحابة غبارها ، حين برز الفلاحون السود قادمين من كل صوب ، وهم يهللون ..

ووثب ( سامبا ) من الطائرة وراح يثرثر معهم ويمازحهم بلغة مجهولة لى .. هذه نقطة مهمة من النقاط التى تميز ( سامبا ) .. إنّه ابن الدار .. لا أحد يشكّ فى جذوره ، وعلامات علاج ساحر القبيلة شديدة الوضوح على خديه .. وهذا يزيل أى شكوك يحملها الأفارقة ضد الرجل الأبيض عامة .. إن الحكومات الإفريقية متردّدة دومًا بصدد المعونات الصحية من العالم الغربى ، أو أىّ تدخّل علمى مهما كان بريئًا ، وكما قلتُ فى الكتيّب الأول ، لم تكفَّ حكومة ( نيجيريا ) عن اتّهام منظمة الصحّة العالمية بتلفيق قصة فيروس ( لاسّا ) ؛ كى يفشل مهرجان الثقافة السوداء فى لاجوس عام 1977 .. أما مع ( سامبا ) فالثقة مطلقة ..

نزلت من الطائرة بساقين من عجين ، شاعرًا بالأتربة تسدّ حلقى .. وراح الأطفال السود العراة يتصايحون ويرمقوننى فى دهشة .. لابد أن منظرى أغرب من منظر الطائرة بالنسبة لهم ..



نزلتُ من الطائرة بساقين من عجين ، شاعرًا بالأتربة تسدّ حلقى .. وراح الأطفال السود العراة يتصايحون ويرمقوننى فى دهشة ..

كان هناك كوخ من البوص يبدو أنه لا ينتمى للقرية ، وبالفعل تبينت بعض الشعور الشقراء من فرجته ، فلما دنوت أكثر أدركت أن هناك ثلاثة غربيين لا أعرفهم ، يجلسون إلى مكتب صغير داخل الكوخ ، وأمامهم بعض الدفاتر ...

وأدركت أن الوطنيين يقفون فى صف طويل عند الفتحة الأخرى من الكوخ ، كأنما هذا طابور جمعية .. كان هناك من يقوم بأخذ معلومات عنهم فى بعض الأوراق المرتبة بعناية ، ثم يقوم بإعطائهم عقارًا ما بالفمّ ، يحرص على أن يبتلعوه أمامه ( قرصان فى العادة ) ، وهو ما ذكرنى بمشهد ابتلاع علاج البلهارسيا فى الوحدات الصحية فى مصر ..

انا أعرف هذا العقار بالطبع .. فقد جئت من ( الكاميرون ) لا من باريس ، وأعرف أنه عقار ( المكتيزان ) أو ـ على سبيل المرح ـ ( إيفرمكتين ) الذى يتناوله الفلاحون سنويًا ، كى يقضى على الديدان الصغيرة .. لكنه لا يقدر على الكبيرة منها .. أى أنه يمنع انتشار العدوى لكنه لا يبيد سببها ..

وبرغم هذا قد شكل العقار ثورة حقيقية بعد

العقارات القديمة التى كانت أسوأ من الموت ذاته ، وكانت حقنة واحدة منها شبيهة بمرور قطار بضاعة محمّل على جسدك ..

ولاحظت فى ضيق أن نسبة العمى هاهنا غير عادية حقًا .. لقد كان واحد من كل ثلاثة كفيفًا ، يتحسس الأرض بعصاه ، ولابد من طفل يجرّه من يده ..

كل هذا جميل .. لكن المشكلة هى أن عينى الطفل ليستا سليمتين بدورهما !

أكثر النسوة العجائز مكفوفات تماما ، ولم يعد لهن من عمل سوى الجلوس فى الظلّ وتقشير الفول السودانى بأسنانهن ..

أما المبصرون فى القرية فكانوا لا يكفون عن الهرش طيلة الوقت .. ولهذا تجد أن أظفار هؤلاء القوم لامعة برّاقة بشكل خاصّ ..

ولاحظت أن نمو الأطفال غاية فى السوء .. كلهم أقرب إلى الأقزام ، وفسرت هذا بسوء التغذية إلى أن عرفت أن هذا داء ( النكالانجا ) والذى يُعتقد أن سببه هو ـ كالعادة ـ الإصابة بالميكروفيلاريا فى سن مبكّرة ..

كان الكل منهمكاً .. ورأيت ( سينيه ) الفرنسى يعود بحقيبة كبيرة مفتوحة فيلقيها داخل طائرته ، ثم يواصل العمل الشاقّ ..

كان كل هذا جميلاً ، وقد أدركت أن هؤلاء القوم يبذلون جهداً عظيماً هاهنا ، وأن ( سامبا ) رجل عظيم .. لكن ما دورى في كل هذا ؟ كما أرى يفهم الجميع دورهم .. والمهمة تحتاج إلى أطباء عيون وطيّارين وخبراء مبيدات .. فأين أنا ؟ آسف للتعبير ، لكن دورى بالفعل لا يزيد على ( الفاسوخة ) .. لا أجد تعبيرًا أكثر رقيًا يعبر عن ( الفاسوخة ) سوى ( الفاسوخة ) .. أنا الرمز الحىّ لتضامن وحدة ( سافارى ) مع منظمة الصحة العالمية .. تضامن الشعوب .. الطبّ الذى لا جنسية له ولا لون بشرة .. إلخ .. لكنى لم أعتد هذا .. لابد من خلق دور لى .. ( سافارى ) .. كم أشتاقك !

ودنا منى ( سامبا ) وقد تلوث قميصه بالعرق ، وسألنى فى حزم :

ـ « لماذا لا تفعل شيئاً يا عاشر ؟ »

قلت له وأنا ألوك قطعة من البوص ما بين أسنانى :

ـ « بالعكس .. أنا أتأمل وأنفعل .. »

ـ « لماذا لا تجرى بعض الخزعات الجلدية ؟ »
ـ « سأموت كمدًا لو لم أفعل .. »

واقتادنى إلى جوار كوخ ، حيث أمام مجهر جلست شقراء مسطحة الوجه ، لها ذلك الجمال عديم المذاق المميز لنساء اسكندنافيا .. وقال لى إن هذه هى الممرضة السويدية (أجنيس) التى ستعلمنى لأخذ الخزعات .. والخزعات ـ بالبلدى ـ هى عينات الجلد ..

كان الأفارقة يقفون صفًا أمامها ، وقد كشف كل منهم عن عظمة الحرقف البارزة تحت خصره ، ولاحظت غرابة مظهرهم ببطونهم المتدلية حتى يوشك بعضها على لمس الأرض .. كما أثار تقززى منظر جلودهم التى شبهها العلماء بجلد الفهد تارة وجلد السحلية تارة أخرى .. هذه آثار التهيج المزمن الذى تحدثه الميكروفيلاريا فى جلودهم البائسة ..

وعلمتنى (أجنيس) كيف آخذ العينة .. ببساطة تغرس طرف إبرة تحت الجلد ، وتجعل طرفها المدبب يبرز ، ثم بطرف المبضع تأخذ سلخة صغيرة ، تضعها فى محلول ملحى ..

سهل ؟ هذا ما تظنه أنت ، لأنه لو ظهر دم من مكان الجرح ، يكون أسلوبك فاشلاً .. وبعد هذا تضع

النسيج على شريحة وتنتظر نصف الساعة ، ثم تتأمل المشهد عبر عدسة المجهر ..

يا للهول ! الآن يمكنك أن ترى الكابوس رأى العين .. آلاف الميكروفيلاريا تخرج من قطعة الجلد لتمرح كالشياطين أمام عينيك فى السائل الشفاف ..

وسرعان ما كونّا فريقًا ثنائيًا .. أنا آخذ الخزعات وهى تفحصها ..

سألتها فى ملل بعد ما كررت العملية عشر مرات :

ـ « ما جدوى هذا كله ؟ نحن نعرف أن كل هؤلاء مصابون بالداء .. »

ـ « نعم هم مصابون .. لكن إلى أى حدّ ؟ إن عدد الميكروفيلاريا فى كل جرام يساعد منظمة الصحّة العالمية على تحديد مدى شراسة الوباء وقابليته للاستئصال .. لا مجال للمصادفة هنا .. »

لقد بدأت الحرب .. وعرفت أن أيامًا سوداء تنتظرنى مع هؤلاء القوم الذين لا يتعبون .. لكنى على الأقل لن أشعر بالملل ..

إن أشياء غريبة ستحدث هنا .. يمكننى أن أقسم على هذا ..

★ ★ ★

# ٦ ـ لكل منّا يومه !

كانت ليلتى الثانية فى المركز الفاخر لمكافحة الـ ( أونكو سيركا فولفيولاس ) فى ( بوركينا فاسو ) ؛ ليلة ممتعة بحق .. قلما نمت بهذا الإنهاك وتفكك العضلات .. وأمتع النوم هو ما يجىء بعد إرهاق شديد .. عندها يغدو جسدك راغبًا فى الاستسلام غير المشروط للجاذبية الأرضية فى وضع أفقى .. قال لى الفرنسى .. ماذا كان اسمه ؟ قال لى إن هذا يحدث فى اليومين الأولين ، لمن لم يعتد اهتزازات الهليوكوبتر وخضخضتها لعظامه ..

وفى الصباح تناولنا إفطارًا سريعًا رديئًا كالعادة ، ودخل ( كليف ) رجل الصحة العالمية ثقيل الظلّ ؛ ليخبرنا أننا متوجهون اليوم إلى دلتا ( فولتا ) الأسود ..

سألت الفرنسى الذى كان يملأ فمه بالبيض :

ـ « هل نفس الشىء يتم فى بلاد أخرى ؟ »

ـ « طبعًا .. هممممم ! » ـ وابتلع ما فى فمه وهو

يعدّ على أصابعه - « إن مشروع مكافحة عمى الأنهار تشترك فيه عدة دول .. لكن ( بوركينا فاسو ) هى مقرّ الرأس .. من هذه الدول : غينيا - غينيا بيساو - السنغال - سييراليون - غانا - توجو - بنين - ساحل العاج .. كل هذه الدول المتشاحنة المتنافرة قد حزمت أمرها ووحدته تحت إمرة ( إبراهيم سامبا ) .. هممممم ! »

- « وما دوركم أنتم مادمتم لا تجيدون الطيران ؟ »

- « مراقبة العملية وتنسيقها .. إن أى خطأ فى المواعيد يعنى كارثة .. ألا تفهم هذا يا عاشر ؟ »

- « بلى .. وأكون شاكرًا لو كففتم عن استعمال هذا اللقب » .

وانطلق الرجال للحاق بالسيارات الـ ( لاندروفر ) .. وعرفت أن ( سامبا ) لن يجىء معنا .. إنه يقوم ببعض الترتيبات التسويقية فى مكتبه ، وعرفت أنه لا يفارق المكتب من الخامسة صباحًا حتى الواحدة من صباح اليوم التالى .. إنه من نوع الرجال الذين لا ينامون ، ولهذا ينجحون .. هذه موهبة لا أحسبنى سأرزق بها يومًا ...

شعرت بوحدة .. فأنا لم أتعرف أحدًا من الفريق

سواه ، والأسوأ أنهم اختاروا لى الطائرة التى سيركبها رجل الصحة العالمية ثقيل الظل إياه ..

ومن جديد تكرر مشهد الانطلاق مع الطيار البرتغالى المتحمس .. ومن جديد رأيت الأحراش من الهليوكوبتر ؛ حتى تذكرت ذلك المشهد الخالد فى الأفلام الأمريكية عن فيتنام ..

انحدر ( ماريو ) إلى مستوى النهر .. بضعة أمتار حتى لو أن تمساحًا واحدًا كف عن الكسل والخمول ، ورفع فكيه لأعلى لالتقطنا دون جهد يذكر ..

ومن جديد عاد الضباب الأبيض القاتل يعفّر النهر ، ثم بدأت الطائرة ترتفع ..

هنا دوّت صرخات الاستغاثة عبر جهاز اللاسلكى .. ذلك الصوت الاستاتيكى المتحشرج يردد فى هلع :

ـ « لقد فقدت التحكم يا ( خونديراس ) ! المحرك الرئيسى يأبى أن .... »

ـ « تبًا ! حاول أن تتماسك وتهبط يا ( كارل ) .. عليك أن تجد يابسة .... »

ـ « لكن المروحة الرأسية لا ... »

بووووووووووووووووووووم !

كان هذا الجواب كافيًا جدًا كأنه نشرة أخبار التاسعة مساءً .. وارتفع (ماريو) فوق النهر وراح يطلق السباب البرتغالى ، وينظر حوله فى جنون :

ـ « أين هو ؟ أين الشيطان التعس ؟ »

ـ « هناك ! عند الساعة التاسعة ! »

قالها (كليف) ثقيل الظل ، وهو يشير فى الاتجاه الذى حسبه هو التاسعة .. واستطعت أن أدرك أن ما قلته عن الحرب فى فيتنام ، كان نوعًا من النبوءة الدقيقة .. هاهى ذى الطائرة وقد استحالت جمرة من جهنم ، وقد تكومت بين الأشجار المتشابكة على ضفة النهر ، والدخان الأسود يتصاعد لعنان السماء .. ثمة غصون تلتهب بالنار ثم تهوى فى الماء .. صوت الخرفشة المميز للأوراق الجافة تحترق ، نسمعه برغم صخب محرك الطائرة .. الزهرة الصفراء الحانقة دومًا تعبّر عن سخط طال ..

يدور (ماريو) بطائرته حول المشهد الجحيمى ، ثم يغمغم :

ـ « لا أحياء .. هذا واضح .. ثم إن الهبوط مستحيل هاهنا .. »

ـ « فلنعد ونبلغهم .. »

ـ « لن يسرّ ( سامبا ) لسماع هذا .. من كان مع ( كارل ) ؟ »

ـ « الروسى .. يبدو أن اسمه ( سيمياتوف ) او شيء من هذا القبيل .. إن أسماءهم تتشابه .. لكن الرماد لا يعبأ بالأسماء .. »

ودارت الطائرة مائة وثمانين درجة عائدة أدراجها ..

كنا واجمين .. وبرغم أننى لم أعرف الروسى أو ( كارل ) هذا ؛ لكنى كنت أهتزّ دومًا حين أرى الموت فى غير مكانه المعتاد : المستشفى .. عند رءوس أسرّة المرضى الميئوس منهم .. لقد اعتدت وجوده هناك وإن لم أحبه قط ..لكنى بعد كل هذه التجارب مع الموت ، مازلت أرتجف حين أرى حادث مرور أو طائرة تحترق بمن فيها ..

★ ★ ★

وفى مقر القيادة ساد صمت رهيب ، وكفّ من كان يلتهم الغداء عن المضغ دقيقة على سبيل الحداد .. وقال ( ماريو ) وهو يبلل وجهه بالماء :

ـ « لا بأس .. لقد لحق ( كارل ) بـ ( جيمس

مكجريجـور ) .. لكـل منـا يومـه الخـاص فـى هـذا الجحيم .. »

سألته وقد أثار هذا دهشتى :

ـ « هل مات آخرون ؟ »

ـ « طبعًا يا عاشر .. إنها الحرب بكلّ تفاصيلها .. »

المفروض ألا يدهشنى هذا ، وقد رأيت الطريقة التـى يقود بها ( ماريو ) طائرته ؛ كأنه فتى ماجن يستعرض سيارتـه الرياضيـة الحديثـة ، أمـام حشـد مـن الفتيات ؛ لكنى بدأت أقلق .. هناك موت إذن فى هذا المشروع ..

وفيما بعد جاء ( سامبا ) غاضبًا كالإعصـار ، وراح يرغى ويزبد ، ووصـف هـؤلاء الطيارين بأنهـم حفنـة مـن المجـانين .. أسوأ عينـة مـن المرتزقـة الذين لـم يجدوا حربًا فانضموا إلـى المشـروع .. وكـان منظمـة الصحّة العالمية لم تجد حثالة بشرية أكثر من هذه ..

قال له ( ماريو ) ببرود وهو يلوك اللادن :

ـ « سـيدى .. لقـد احـترق الرجـل حيًّـا .. لا يوجد لديه اعتذار أقوى عـن أخطائـه .. لقد انتهـى الأمـر ، لكننى أشك فى أن هذا خطأ من جانبه .. »

ـ « إذن هو خطئى أنا ؟ »

ـ « لقد تحدث فى اللاسلكــى قائــلاً إن اثنين من محركاته هلكا .. هذه صدفة غير مسبوقة .. لابد أن ( كارل ) كان يملك قدرًا لا بأس به من النحس .. »

قال أحد الجالسين بفم ملىء بالطعام :

ـ « صعب هذا .. لقد كان يغلبنـى دومًا فـى لعب الورق ! »

بحث ( سامبا ) عن كلمات مناسبة فلم يجد .. التزم الصمت وبدا غارقًا فى الأفكار السوداء .. ثم قال وهو يبتعد :

ـ « ( موريس ) .. أريـد منـك أن تتـولى الأمــور الإدارية والتحقيق مع السلطات .. أريد فحص حطام الطائرة بدقة .. »

بعد ما انصرف تبادل الرجال القصص المشابهة ، وبدا لــى أن ردّ فعل ( سـامبا ) كـان قاسـيًا بعـض الشىء .. لم يبدُ عليه تأثر لوفاة الرجلين كرجلين ، بل لفقدانهمـا كخبيرين .. وبدا أن فقد الطـائرة قـد آذاه نفسيًا بحقّ ..

قال ( سينيه ) إذ سمع خواطرى بشكل ما :

ـ « هذا حق يا عاشر.. لكن الرجل يفكر فيما هو أخطر .. فى ألا يجد طيارين يقبلون العمل ، أو أن تسحب منظمة الصحة العالمية تمويلها للمشروع .. أو .. أو .. إن لديه مئات الهموم أكثر من الحزن الشخصى على زميلين .. »

★ ★ ★

لقد مضى على قدومى إلى ( بوركينا فاسو ) شهران ، ويمكن القول إن من عاشر القوم ـ كما تقول أمى ـ اربعين يومًا صار منهم ..

لقد تحولت إلى خبير فى منظمة الصحة العالمية لايفكر إلا فى توالد النبابة ، واتجاهات مياه الأنهار فى هذا الفصل من العام ، ومشاكل توفير عقار ( المكتيزان ) ..

وتبادلت بضعة خطابات مع أصدقائى فى (سافارى) .. كل شىء هناك يسير على ما يرام .. مازال (بسام) متهيبًا .. ومازال (ليفى) وغدًا .. ومازال (شيلبى) متبخترًا .. ومازالت (برنادت) فاتنة .. ومازالت الملاريا شرسة ومرض النوم قاتلاً .. الحق أننى لم أدر من قبل كم أحب هؤلاء الحمقى (ما عدا الثانى طبعًا ) .. لكن (بارتلبيه ) ـ على ما يبدو ـ لا ينوى

استردادى حاليًا .. إن راتبى يأتى إلى ( بوركينا فاسو ) بشيك شهرى ، لكنى لم أعد بحاجة إليه .. لقد تعلمت ، بلا فخر ، حياة الصراصير هنا ، وصار بوسعى أن أعيش شهرًا بعشرة قروش لو بالغت فى الإسراف ..

برغم هذا لم أشعر قط بأننى عنصر مهمّ هنا ..

لقد اعتدت أن أحدث ضجيجًا وضوضاء فى كل مكان أكون فيه .. وبدا لى أنه من الغريب أن يمرّ وجودى بهذا الهدوء ..

لكن الصخب كان فى الطريق ...

★ ★ ★



# ٧ ــ ثمة خطأ ما ..

فى ذلك الصباح كنت أركب فى السيارة إلى جوار طبيب من الوطنيين الثلاثة الذين يعملون هنا .. كان الوقت فجرًا كالعادة ، حين تختلط الموجودات بذلك اللون الأرجوانى الغامض ، ويكتسب الوجود رائحة الصباح الوليد ..

وقفت السيارات أمام المطار الصغير ، حيث تقف الطائرات كوحوش جاثمة تنتظر من يثير غضبها لتنهض .. وترجلت ورحت من بعيد أرمق المشهد الذى رأيته ، لا أذكر كم من المرات : عملية نقل عبوات المبيدات إلى الطائرات .. وكنا فى هذا الوقت نعمل مع الـ (فكترون) .. فكما قال لنا (سامبا) آنفًا نحن لا نتعامل بذات المبيد فترة طويلة ..

رحت أرمق المشهد فى ضوء الفجر المحبب .. ثم حملتنى قدماى إلى أرض المطار حيث الطائرات الواقفة مبللة بالندى .. باردة .. وما أندر الأشياء الباردة فى هذا العالم ..

إن الطيارين يتناولون القهوة الآن قبل الرحيل ..

رحت أمشى بين الوحوش أتأملها فى إعجاب .. مازلت طفلاً يحب الطائرات بجنون ، وإن لم أكفَّ عن التظاهر بأن الأمر لايثير اهتمامى .. ولسان حالى يقول : طائرات ؟ يا للملل ! إن لدى ثلاثًا منها تحت الفراش فى بيتى بالقاهرة !

الآن أنا واقف ما بين طائرتين ، وقد أثار فضولى شعار غريب وجدته على ذيل الطائرة .. مُلصق لم أره من قبل ، يمثّل ما يشبه جمجمةً تخرج النار من أذنيها .. تعرفون أسلوب الرسم الإفريقى الجميل زاهى الألوان الذى لا يمكن وصفه ..

هذا الملصق لايمتّ بصلةٍ لمنظمة الصحة العالمية ، ولا مشروع مكافحة عمى الأنهار.. بالواقع هو لايمت بصلة لشىء ما ..

هنا شعرت بمن يتحرك بجوارى .. لمحته بطرف عينى فالتفتّ سريعًا ..

كان هذا رجلاً أسود من الوطنيين يرتدى ثيابًا زرقاء ( أوفرول ) ، وعلى صدره بطاقة تعريف .. باختصار كان ميكانيكيًا يحمل صندوقًا من الآلات ،

وقد فرغ من عمليات الصيانة للطائرة التى أقف بجوارها ..

كل هذا جميل ومتوقع .. إن فحصنا شاملاً يجرى للطائرات قبل كل إقلاع بناء على أوامر ( إبراهيم سامبا ) .. ومنذ حادث ( كارل ) إياه .. لاشىء يثير الريبة ..

لكن الشعر تصلب فى مؤخرة عنقى .. لماذا يتصرف إذن بهذا التوتر .. بهذا الحذر .. بهذا القلق ؟ لماذا اتسعت عيناه السوداوان حين رآنى كأنما تضيئان فى وجهه الأسود ؟

صحت بصوت حاولت أن يبدو متهمًا صارمًا فجاء خائفًا :

ـ « أنت .. ماذا تفعل هنا ؟ »

وكان غبيًا .. بالواقع كان شديد الحمق كوعل ( الموس ) ، فلم يقدّم لى أية أعذار أو يختلق شيئًا .. لقد طوّح بحقيبته الثقيلة فى وجهى على الفور .. وولى الأدبار ..

كانت الصدمة قوية ، لكنها أفادتنى لأنها جعلتنى أغضب .. وعندما أغضب لايمكن لأحد أن يحبنى أبدًا ..

جريت وراءه وأنا لا أرى تقريبًا ، وقلت لنفسى : لو كان ما أصابه هو مركز يتعلق بالإبصار فى رأسى ؛ فليدفع الثمن الآن ..

لحقت به وراء إحدى الحظائر المسقوفة ، فتمسكت بذراعه .. وجه لى لكمة أخرى .. ثور هائج .. حيوان !

هذه المرة أثار غضبى بحق.. فرحت أوجه اللكمات والركلات الشرسة العنيفة له .. لكل موضع فى جسده .. لم يكن هذا قتالاً شريفًا ، بل هو قتال قذر لاحدود ولا قوانين له .. نوع القتال الذى لا يضرب إلا تحت الحزام .. حيث يغدو العضّ والخمش أسلوبين مقبولين تمامًا .. لم يكن قتال رجل مع رجل بل هو نوع من قتال الفتيات الشرس مع بعضهن .. الأسلوب الذى يسمونه (شجار الهررة) .. وسقطنا معًا وسط بركة من الزيت والشحوم ، دون أن نكفّ عن إيذاء بعضنا فى حماسة ..

على أن لكل شىء نهاية .. ومن العسير أن يربح المرء معركة بدأها بتلقى صندوق ملىء بالمعدات الثقيلة فى وجهه ..

كانت لكمتاه الأخيرتان هما ما أنهى المعركة ،



لحقت به وراء إحدى الحظائر المسقوفة ، فتمسكت بذراعه
. . وجه لى لكمة أخرى . . ثور هائج . . حيوان . . !

وسمعته يبتعد .. لكنى كنت أوهن من أن أتكلم .. لا بد أن هذا الطعم المالح الصدئ هو دمى ..

أسمع من ينادى اسمى .. أسمع هدير المحركات فى ساحة الإقلاع .. سيرحلون من دونى .. الحمقى ! أنا هنا يا مخابيل ! أقول لنفسى إن هذا خطأ .. ما كان ينبغى أن يقلعوا لأن ... لأن ماذا ؟ نسيت ...

وغبت عن الوعى بالطبع ، لأننى لا أذكر أى تفاصيل بعد هذا ..

★ ★ ★

وحين عادت الطائرات بعد ثلاث ساعات ، كان رأسى مربوطًا بالضمادات ، وقد تحول وجهى إلى ما يشبه القرنبيط الذى لا تجرؤ سيدة على شرائه ، ما لم تكن مجنونة تمامًا ..

كان عدد الطائرات أقل من اللازم ، وهذا ما توقعته ..

راحت المحركات تهدر ، والغبار يعمى العيون ، لكنى استطعت أن أراهم يترجلون .. كانوا ولجمين ، فقدوا كل همة أو رغبة فى المزاح .. الأطباء ثم الطيارون ...

ورأيت ( ماريو ) البرتغالى ينزع منظاره الأسود

ويفرك مقلتيه بأنامله ، ويبصق على الأرض ، ثم يتقدم منحدر الكتفين نحوى .. دنوت منه فوجدت الدموع فى عينيه متحجرة ..

ـ « من ؟ »

سألته فى تردد ، فقال بصوت مبحوح :

ـ « ( باولو فراوزو ) البرتغالى الآخر.. تبًا ! لقد كان الفتى صديقى ! ».

ـ « ومن معه ؟ »

ـ « الإنجليزى .. ( موريس جولدمان ) .. يبدو أن اسمك سيصير الخامس أو الرابع قريبًا جدًا ! »

لكنى لم أر أثرًا للسخرية على وجهه وهو يقولها ..

وجاء ( إبراهيم سامبا ) بعد قليل ، وقد ازداد لونه قتامة ، وكان الهمّ على وجهه يذكرك بالجورب المقلوب .. تأمل المشهد ثم بصوت غليظ تساءل :

ـ « هل لدى أحد فكرة عما حدث ؟ »

قال ( ماريو ) :

ـ « لقد انفصلت المروحة الرأسية تمامًا .. »

لتتحيت بـ ( سامبا ) جانبًا أمام عيونهم المندهشة ..

للمرة الأولى يلاحظون أننى أبدو كمن مرّ فوقه قطار ، أو استعمله ( كينج كونج ) للتدريب على الوثب ..

ـ « هل لى فى كلمتين معك يا سيدى ؟ »

ـ « بالتأكيد يا عاشر .. ولكن ما السبب ؟ »

ـ « على انفراد لو سمحت .. »

ومشينا إلى ما وراء ساحة المطار ، حيث كان ذلك العلم الذى يدلّ على اتجاه الريح يتدلى فى تعاسة فى حرّ الظهيرة .. كان بعض موظفى المطار يقومون بفرز الشحنات ..

ـ « ماذا أصاب وجهك ؟ تبدو كمن مرّ فوقه قطار ، أو استعمله ( كينج كونج ) للتدريب على الوثب .. »

تجاهلت هذا التعليق .. أنا قلته بنفسى منذ دقائق .. وقلت له :

ـ « ثمة تخريب متعمد لمشروعك .. هذا واضح .. »

هزّ رأسه فى فهم ، وقال :

ـ « هذا فقط ما تريدنى بصدده ؟ الأمر واضح لكل ذى عينين .. هل رأيت عملية التخريب رأى العين ؟ »

ـ « رأيت الرجل الذى كان يرتدى زىّ عمال الصيانة ، ولم تكن تجربة سارّة أبدًا كما ترى على

وجهى .. وحين عدت لصوابى كان السرب قد حلّق نحو مصيره .. »

- « كنت أشك فى هذا .. لابد أنهم تعمدوا التخريب قبل الإقلاع بدقائق كى لا نكتشفه .. إن عملية الصيانة اليومية والتفتيش ، تتمّ فى الواحدة بعد منتصف الليل .. »

- « هم ؟ »

- « نعم هم .. لا أدرى من هم لكنى أعرف أنهم كُثُر .. »

ثم بصوت رسمى قال وهو يبتعد كاسف البال يجرّ عالمه جرًا :

- « شكرًا على هذه المعلومات يا دكتور ( عبد العظيم ) .. »

وعرفت أنه ليس فى حالة طبيعية مادام لم ينادنى بـ ( العاشر ) كعادته ...



# ٨ ـ نادى أصدقاء الميكروفيلاريا ..

كان مشروع عُمر ( إبراهيم سامبا ) يتفكك ...

ولم أستطع قط فهم من المستفيد ، ما لم يكن هناك ما يدعى بـ ( نادى أصدقاء الميكروفيلاريا ) أو شىء من هذا القبيل .. هؤلاء فقط هم أصحاب المصلحة الوحيدة فى إفشال المشروع ..

★ ★ ★

بالطبع كنت الآن أعرف تفاصيل كثيرة عن ( إبراهيم مالك سامبا ) ، وعرفت أنه نموذج نادر ، لو رزقت إفريقيا بخمسة منه لتغير حاضرها ومستقبلها ..

اسمحوا لى أن أستطرد قليلاً ، لأننى سأموت كمدًا لو لم أحك لكم ما أعرفه عن هذا الرجل .. وبالطبع كل هذه المعلومات حقيقية دقيقة ، فلا داعى لأن أكرر هذا فى الهامش السفلى ..

★ ★ ★

« لو لم يكن ( إبراهيم مالك سامبا ) لدى منظمة الصحة العالمية لاضطرت إلى اختراع واحد! »

★ ★ ★

ولد الرجل فى ( جامبيا ) لأب فقير ، وكان كل شىء يبشر بمستقبل غير مرموق ، لولا أن كسر ذراعه فى سن الرابعة عشرة .. وفى المستشفى تعرف طبيبًا أسكتلنديًا لطيفًا علمه أن يحب الطب .. هذه كانت البداية الموفقة التى قادته إلى الطريق الصحيح ، وفى ظروف مماثلة ـ كسر الساق ـ أحبّ ( هـ. ج. ويلز ) الأدب .. يبدو أنه لا نجاح دون كسور ..

قرر ( سامبا ) أن يتعلم ، والتحق بإحدى مدارس الإرساليات قسرًا .. لقد وضع المدير أمام الأمر الواقع .. وسرعان ما تخرج وصار مؤهلاً لدراسة الطب فى لندن ، لكن فقره جعله يلتحق بجامعة ( غانا ) ، وهو ما اضطر أمه لبيع مصاغها كى تؤمن نفقات دراسته هناك ..

فى عام 1953 تخرج ( سامبا ) طبيبًا ، وسافر للدراسة فى ( إيرلندا ) فى مستشفى ( برسكوت ) قرب

(ليفربول ) ، وهناك تزوج من ممرضة جامبية ورزق بثلاثة أطفال ..

عاد (سامبا ) إلى وطنه فى أواخر الستينات ليفتتح عيادة خاصة ناجحة ، ويدير مصلحة الخدمات الطبية فى (جامبيا ) ..

وفى عام 1980 تطلب منه منظمة الصحّة العالمية أن يسافر إلى (بوركينا فاسو ) لتولى إدارة مشروع مكافحة عمى الأنهار هناك .. وهو مشروع لم يكف عن الفشل من عام 1974 حتى لحظتها ولأسباب عديدة ..

وتكون المفاجأة هى أن جهود (سامبا ) تأتى أكلها بسرعة غير مسبوقة .. لقد كان الرجل آلة بشرية أسطورية لا تتعب ولا تهمد ولا ترتشى ..

لكن معركة المعارك لم تكن قد بدأت بعد.. هذه المعركة هى العثور على دواء فعال ضدّ (أونكو سيركا فولفيولاس ) يختلف عن الأدوية القديمة ، التى برهنت على سرعة فائقة فى دفع المريض إلى القبر ..

بدأت المعركة إذ تبارت شركات الأدوية فى العالم تفتش فى معاملها عن عقار صالح .. وكان أن توصلت شركة ( ميرك شارب آند دوم ) فى ( نيوجيرسى ) - بفريق عمل ممتاز - إلى أن تصل لعقار ( إيفرمكتين ) الذى استطاع القضاء على الميكروفيلاريا خلال ثلاثة أيام ..

وسافر ( سامبا ) إلى هناك متوجسًا متوقعًا للأسوأ .. لقد استغرقت البحوث سبعة أعوام ، وتكلفت ملايين الدولارات ، وحان أوان دفع الثمن .. الثمن الذى لا تقدر إفريقيا بالتأكيد على دفعه ..

لكن رئيس مجلس الإدارة ( روى فاجلوس ) ـــ فى بادرة كرم لم يستطع أحد تصديقها ـــ قرر أن تنتج الشركة الدواء مجانًا لكل من يحتاج إليه ..

ويعود الطبيب الإفريقى مبهور الأنفاس إلى القارة السوداء التعسة ، ليخبر قومه بما توصل إليه .. ومن يومها بدأ إعطاء العقار للأفارقة ، وتم علاج آلاف منهم على حساب ( ميرك شارب آند دوم ) .. ودبت الحياة فى قرى بأكملها ، وأمكن توطين 17 مليونًا

من الفلاحين فى قراهم ، كما تم استصلاح نحو 16 مليونًا من الفدادين .. ومن جديد بدأ المكفوفون يبصرون ولو قليلاً ، وهذا كاف جدًا بالنسبة لهم ..

★ ★ ★

« إن مفهوم العمى يختلف من بلد لآخر .. ففى العالم الغربى يُطلق على المرء أعمى إذا لم يستطع القراءة .. أما فى إفريقيا فالأعمى هو من لا يقدر على رؤية بقرته ! »

من كلمة ( إبراهيم مالك سامبا ) أمام منظمة الصحة العالمية عام 1989

★ ★ ★

كنت فى هذه الآونة أشعر بأننى على غير ما يرام ..

كان الحكاك يضايقنى أكثر من اللازم ..

★ ★ ★

# ٩ ـ طفرات !

فى البدء لم يساورنى قلق ..

نحن نعيش فى بيئة موبوءة على كل حال ، وكل شىء وارد ..

لكن الأمر ازداد سوءًا ، وصار الليل كابوسًا حقيقيًا بالنسبة لى .. كلما توارى الضوء شعرت بالذعر ، لأننى بعد ساعات سأختبر تلكم المشاعر القاسية .. الكل نائم من حولى ، وأنا أمزق صدرى وبطنى وما تحت إبطى بأظفارى ..

وفى الصباح أنهض من النوم ككرة شراب لعب بها أكثر الأطفال توحشًا فى حارة متسخة .. ويسألون عن حالى فأقول كاذبا :

ـ « بخير.. ما كان لى أن أكون أفضل .. »

كنت أقاوم الاعتراف بالمرض ، لكننى بعد أسبوع لم أعد أتحمل أكثر ، ودنوت من الانهيار العصبى ،

وخَمن رجل الصحة العالمية السمج ( ريتشارد كليف ) حالى .. فقد رأى آثار الحك على جلد ساعدى .. وسألنى فى حذر :

ـ « هل تتعاطى ( الهترازان ) الوقائى ثلاثة أيام فى كل شهر ؟ »

قلت فى عصبية :

ـ « لا بالطبع .. لم يخبرنى أحد .. »

ـ « هذا خطؤك قبل أن يكون خطأنا .. أنت جئت إلى بؤرة عمى الأنهار فى العالم ، وما كان عليك إلا تحتاط .. تنكر أن لدغة الذبابة غير مؤلمة ، وفى الغالب غير محسوسة .. لذا يسمونها ( الناعمة ) .. »

قلت له ما معناه (فأل الله ولا فألك ) ، لكننى بدأت أقلق بحق ..

وفى نهاية الأسبوع الثانى اقتحمت غرفة الدكتور (سامبا ) لأقول فى رعب :

ـ « سيدى .. أحسبنى أصبت بالـ ( أونكوسيركا ) ! »

نظر لى نظرة طويلة بعينيه المنهكتين المهمومتين ، وبدأ يبتسم ببطء :

- « من قال هذا ؟ »

- « أنا ! و( كليف ) يوافقنى .. »

- « إذن نسى الأحمق كل شىء أو هو يمازحك .. أنت معنا منذ أشهر معدودات ، وما كانت ( الميكروفيلاريا ) لتظهر فى دمك بهذه السرعة .. دعنى أر جلدك .. »

وأخرج من مكتبه عدسة مقرّبة ، ودنا منى وراح يتفحص آثار الحكّ على جلدى ، ثم ابتسم ، وقال وهو يعيد العدسة إلى الدرج :

- « لا تقلق .. هذه حالة جرب عادية جدًا ! »

صحت فى فرح :

- « فقط ؟! »

- « أنا أعرف ما أقول .. أنت أجرب يا صديقى ! »

شعرت بسرور غير عادى .. ما كنت أتصوّر أن خبر إصابتى بالجرب قد يجلب لى كل هذه السعادة

والمرح .. على الأقل الجرب مرض له علاج سريع ، ولايسبب العمى ..

سألنى :

ـ « هل تعرف العلاج ؟ »

ـ « بالطبع .. لا تقلق يا سيدى .. إن تلك الظروف التى نعيش فيها ، وحرماتنا من أبسط الحقوق الصحية له أثر وبيل علينا حقًا .. تصوّر أننى لم أستحمّ منذ أسبوعين ، لأنه لا يوجد مكان للاستحمام ولا ماء كاف .. »

ـ « هذه المرة صار الاستحمام من حقوقك بل وعلاجك .. أنت الآن مريض ولست طالب ترف .. »

ثم أضاف بعد تفكير :

ـ « لا تنس استعمال ( الهترازان ) بانتظام .. فمن يدرى ؟ »

وهكذا بدأت أنفذ برنامج العلاج حرفيًا .. وبالطبع لم أصارح أحدًا من رفاق نومى بالموضوع .. لقد

سبب لى هذا إزعاجًا لا بأس به ، لكنه مـرّ علـى خير ولله الحمد ..

★ ★ ★

وفى اليوم التالى جاءنا أستاذ الحشرات الأسكتلندى ( دوجلاس مـار ) ، وهو من خبراء منظمـة الصحّـة العالمية ، واجتمع بـ ( سامبا ) .. عرفت فيما بعد أن الرجل قلق مما أسماه ( ارتفاع معدل المقاومـة لـدى ذبابة السيموليام لما نستعمله من مبيدات ) ..

كان هذا محيرًا بحقّ ، لأن خطـة تدوير المبيدات تعمل بنجاح تـامّ .. والمشكلة هـى أن الذبابـة صـارت لا تتأثر تقريبًا بقائمة المبيـدات التـى نستعملها .. لقد ازداد عدد الطفرات إلـى حدّ غير مسبوق ، وولـدت سلالة جديدة قـادرة علـى المقاومـة ، وحسب قوانين الانتخـاب الطبيعى الداروينـى ، تكـاثرت بسـرعة غـير عادية .. وقد اتفقـوا علـى تسمية هذه السـلالة باسم SRI - 1 ...

من جديد كانت هذه العقبـة تحـرم النـوم على عينـى ( سامبا ) ، وقد اتصل بمنظمـة الصحّـة العالمية طالبًا

خبراء يدرسون هذا الأمر بدقة ، وأرسل لهم عدة عينات من الذباب ..

★ ★ ★

كان المشروع الذى بدأ ناجحًا يتدهور بسرعة غير مسبوقة .. لقد بدأ الطيّارون يبدون قلقهم بصدد حالة الطائرات ، وكذا بدأ الأطباء يحجمون عن مرافقة حملات رش المبيد.. وطلب منى (سامبا) أن أرافق (ماريو) فى رحلة اليوم ، لأرشده إلى الأماكن المناسبة من واقع الخرائط .. والحقيقة هى أننى غدوت مع الوقت ذا حاسة لا بأس بها فى تمييز أماكن توالد الذباب .. كأننى كنت أعمل فى هذا الحقل منذ دهور ...

قلت له وأنا أبتلع ريقى :

ـ « يا سلام ! تريدنى أن أركب الطائرة ؟ »

واصل توقيع الأوراق ما بين يديه ، وقال :

ـ « حالاً ! »

ـ « بعد كل ما حدث ؟ »

- « بالذات بعد كل ما حدث .. »

وفهمت الأمر .. إن الرجل بحاجة . إلى من يبرهن عمليًا على أنه غير خائف .. نوع من التحدى العلنى لمن يحاول تعطيلنا .. ووزنت الأمر فى فكرى ، فوجدت أن الرب واحد والعمر واحد ، و ( إنك إن سألت بقاء يوم .. على الأجل الذى لك لم تطاعى ) ، وأنا غير متزوج ولا أعول .. وإذا لم يكن من الموت بُدّ .....

وهكذا اتجهت كالأبطال إلى الطائرة .. نبيلاً شامخًا لا يبالى بالموت ، والهواء يطير خصلات شعرى الأشقر ... الأسود فى الهواء ، فتذرف الحسناوات دموعهن قائلات : أليس حرامًا أن يموت هذا الفارس الوسيم الشاب ؟

طبعًا لم تطر خصلات شعرى لأنه خشن لا يحركه إلا الديناميت .. وطبعًا لم تحترق الطائرة للأسف ، وإلا لصارت حياتى ملحمة تنشدها قبائل الماساى حول النار ليلاً ، ولجعلت منظمة الصحة العالمية العام القادم عام الشهيد ( علاء عبد العظيم ) ..

عدنـا سـالمين لكن ( سـامبا ) كـان مسـرورًا منـى بحق .. وهذا نصر لا بأس به ..

إن حلم الموت فى أثناء مهمـة بطوليـة كهذه ، هو أجمل من أن يكون حقيقة ...

★ ★ ★

وتكررت المشاكل من جديد فى إحدى قرى الأنهار ..

كنت قد ( نصبت النصبـة ) إياهـا مـع الممرضـة السويدية ( أجنيس ) ، وجلسنا ننتظر طابور السود الذين سنفحص جلودهم تحت المجهر ...

لاحظت أن الأهالى غير راغبين فى التعاون معنا .. وهو مشـهد لم أره قط منذ بـدأت هـذه المهمـة .. وانتظرنـا كالبلهـاء أن يقبل أحدهم لنمزق جلده فلـم يحدث .. بل إن أحدهم لم يدنُ من طـائرة الهليوكوبتر ولم يقدّم الشراب لـ ( ماريو ) كعادتهم فـى الضيافـة .. لقد تناءوا عنا بمعنى الكلمة ....

قالت لى ببرودها المعتاد القادم من بحر الشمال :

ـ « واضح أنه لا عمل لنا اليوم .. »

ـ « حقًا .. ولكن ما السبب ؟ »

كانوا يعرفون الفرنسية .. أكثرهم يفهم الفرنسية إلى جانب لغته الأصلية .. لكنى حين حاولت التفاهم معهم .. هل ثمة ما يضايق أحدكم ؟ كان رد فعلهم هو الصمت إن لم يكن الفرار .. ردّ فعل يوشك أن يكون عدائيًا ...

ماذا دهاهم ؟ كلهم يعرف الطب ويعرف جدوى هذا الذى نفعله الآن ... هم ليسوا بذات درجة الجهل التى ألفتها لدى ( البانتو ) فى الكاميرون ...

هذا الأسلوب الغريب فى التعامل ، يذكرنى بقواعد ( التابوو ) ، ولكن منذ متى انضممنا نحن إلى دائرة ( التابوو ) ؟ إن 65 % من سكان ( بوركينا فاسو ) يعتنقون الهراء الوثنى إياه ، ومنهم 25 % يعتنقون الإسلام ، و 15 % يعتنقون المسيحية.. هذه القرية تمارس العبادات الوثنية .. فهل من الممكن أن ....؟.

قلت لها ونحن نجمع متاعنا للرحيل ، كما يفعل المأذون بعد إنهاء الطلاق :

ـ « لابد من إخبار ( سامبا ) بهذا .. »

★ ★ ★

# ١٠ ـ شيلبى هنا !!

فى اليوم التالى اتجهت إلى مكتب ( إبراهيم سامبا ) ، وأخبرتـه أن شيئًا مـا علـى غير مـا يرام فـى علاقـة الأهالى بنا .. قلت له إننى مرتاب بشدة ، وإن هناك مـن يعمل على بذر بذور الشقاق بيننا وبين القوم هنا ..

أصغى إلىّ فى اهتمام وهو يمسك برأسه كمن يعانى صداعًا قاتلاً ..ثم قال :

« أخبار سيئة ! كالعـادة أخبار سيئة ! ألا تجدون عمـلاً أفضـل من قتـلى بهذا الذى تجـلبونه لى فى كل دقيقة ؟ »

ـ « ظننتك تحب الأخبار السيئة يا سيدى ككـل قـائد مخلص .. »

ـ « أنا مخلص .. لكن هذا كله يتطلب جبلاً لا رجلاً من لحم ودم .. وعلـى كـل حـال أنـا ذاهـب إلـى تلـك القرية اليوم لأتقصى الأمر .. اطمئن أيها العاشر .. »

ثم تفحص الأوراق أمامه وقال :

ـ « خبير طب المناطق الحارة د. ( آرثر شيلبى ) قادم اليوم لدراسة مقاومة الذبابة لمبيداتنا .. لقد رشحته لنا منظمة الصحة العالمية .. أنت تعرفه من وحدة ( سافارى ) .. أليس كذلك ؟ »

( شيلبى ) قادم ؟ يا لها من مأساة !! ظننت أننى سأستريح قليلاً من ثرثرته وتفاخره .. قلت لـ ( سامبا ) :

ـ « بلى أعرفه .. وهو رجل خبيث لا يمكن أن تثق به .. لكنى فهمت أسلوب التعامل معه .. »

قلب كفه السوداء الضخمة ، وقال مقاطعًا :

ـ « أنا لا أسأل عن أخلاقه يا عاشر ، ما دمت لست بصدد تزويجه لابنتى .. أسأل عن كفاءته .. إنه جيد .. أليس كذلك ؟ »

ـ « وأكثر من جيد .. إنه رائع .. لكن له عثراته النادرة .. حتى ( هومير ) يحنى رأسه كما يقولون .. »

ـ « عظيم .. ستكون معه وتريه أبعاد المشكلة بدقة .. اتفقنا ؟ »

طبعًا كان ما قاله ، وما كان بوسعى اختلاق أعذار ..

★ ★ ★

وعند منتصف الليل وصل (آرثر شيلبى) .. كان كعادته يرتدى قميصًا مشجرًا فتحه حتى أعلى بطنه ، ليظهر غابة من الشعر الأشيب ، وقد تدلت خصلة شعر أشيب أخرى على جبينه فوق منظاره الأسود .. وكان يمضغ السيجار مضغًا وقد بدا عليه الاستمتاع ..

اقتادته السيارة الخاصة بالمشروع إلى أفخم فندق فى (واجادوجو) ـ طبعًا ـ وقال لى فى أثناء الطريق :

ـ « كيف حالك يا فتى ؟ يبدو أنهم لا يطعمونك جيدًا هنا .. تبدو لى كمن أصيب بالفشل الكلوى .. »

ـ « لن يدهشنى هذا .. إن الأطباء غير المهمين من أمثالى يلقون هنا معاملة الجنادب .. أسوأ مأكل ومشرب ومسكن .. »

كنا الآن فى لوبى الفندق المكيف ، وتلك الرائحة العطرية تفعم الجو حتى لتغريك بالنوم .. عالم جديد من الجمال والفخامة والترف .. وكل السود أصحاء

مهذبون متأنقون .. لقد كدت أنسى أن هناك زنوجًا لم يتدلَّ بطنهم على الأرض ، ويتبرقش جلدهم ..

قال لى وهو يشير للحمال حيث حقائبه :

ـ « لا بأس .. أنت لن تصير خبيرًا فى طب المناطق الحارة ما لم تعان مثل سكانها .. »

ومطَّ شفته السفلى فى عظمة وأردف :

ـ « أنا عانيت أفظع المعاناة فى شبابى .. لهذا صرت ما أنا عليه ! »

ثم تثاءب وأمر الحمال بأن يتقدمه إلى حجرته ، وقال إنه بحاجة إلى حمام بارد وعشاء دسم بعد إرهاق الرحلة .. وفى الصباح نستكمل دراسة المشكلة ..

★ ★ ★

وفى الثامنة صباحًا كنا ننتظره على باب الفندق بالسيارة اللاندروفر .. كنت فى أتعس حال وقد راح رأسى يتراقص فوق عنقى .. وصداع يشبه ما يشعر به الرأس الذى أطارته المقصلة ، لو كان شىء كهذا ممكنًا .. إننى أتآكل هاهنا من فرط الجهد ، وقلة

الراحة والطعام .. أتآكل ولو رأتنى أمى لصرخت بالصوت ، ولأقسمت أن أعود إلى الوطن حالاً ..

ولم يظهر الأخ (شيلبى) قبل التاسعة .. كان منتعشًا ككارثة ، وقد ارتدى بذلة (سافارى) كاملة كأنما ذاهب للنزهة .. ونظر للسماء كأنما ليغيظنا وصاح :

ـ « جاش ! (يستعملها للانبهار هنا) .. يا له من يوم مجيد !! »

ودار حول السيارة قبل أن يركبها مبديًا إعجابه بمتانتها ، وقدرتها على تحمل الأراضى الوعرة ، ثم قال فى اهتمام ، وهو يشير إلى شىء ما عند مؤخرة السيارة :

ـ « ما المقصود بهذا ؟ إنه جميل .. »

فى ملل غادرت السيارة ، ووقفت على قدمين من خشب متآكل ، أرمق ما يشير إليه ..

كان هناك ملصق غريب يمثّل ما يشبه جمجمة تخرج النار من أذنيها ، بأسلوب الرسم الإفريقى الجميل





فى ملل غادرت السيارة ، ووقفت على قدمين من خشب متآكل ، أرمق ما يشير إليه .. كان هناك ملصق غريب يمثّل ما يشبه جمجمة تخرج النار من أذنيها ..

زاهى الألوان الذى لا يمكن وصفه .. بالطبع تذكرت أين رأيت هذا الشىء من قبل .. غريب هذا ! كل لوازم المشروع تحمل الشعار ذاته .. لابد أن هذا هو شعار عمى الأنهار الذى ابتكره رسامو منظمة الصحة العالمية .. وإن كنت لم أره قط على ورقة أو جهاز .. ولم أره فى مكتب (سامبا) ..

ـ « لا أدرى .. لابد أنه شعار شىء ما .. هلا تحركنا الآن ؟ لابد أن الطائرة توشك على الانفجار من دوننا .. ستكون هذه مضيعة للجهد والمال كما تعلم .. »

★ ★ ★

كالعادة يثير الأمريكان انبهارى فى كل مرة أتعامل معهم فيها .. يمرحون كالمجانين كأنما هم السفه مجسدًا ، ثم يجىء وقت العمل فتحسبهم قومًا فقدوا القدرة على التعب .. إنهم يعملون كالثيران ويلهون كالقطط الصغيرة ..

ولهذا رحت فى انبهار أراقب (شيلبى) ، الذى راح يدرس كل التفاصيل ، ويبحث فى كل مبحث دون كلل وطيلة اليوم .. زار معامل وزارة الصحة هنا ، ثم

ركب الطائرة ليدرس تقنيات الرش من الجو ، ثم هبط فى إحدى قرى الأنهار ، وهى قرية جديدة لا اسم لها ، أجرى توطين الأهالى فيها بعدما تم استئصال ذبابتنا الكريهة منها .. ولم يكن أهلها يتصرفون بعدائية لحسن حظه ..

أجرى بضع خزعات جلدية تفحصها تحت المجهر بنفسه ، وفحص بعض المرضى ، وتفقد قاع عيونهم بمنظار صغير كان يحمله فى جيبه ..

فى النهاية أعلن رأيه :

ـ « الوباء يعود بسرعة ! »

ثم فرد الخارطة وأشار إلى موضع القرية .. كانت دانية من الفولتا الأحمر .. ورسم خطا يدل على اتجاه الريح ، وقال وهو يمضغ سيجاره :

ـ « الريح تتحرك فى هذا الاتجاه قادمة من ( أريبيندا ) و ( واهيجويو ) .. هذا يعنى أنها تمرّ فوق الفولتا الأبيض .. ومعه تأتى أسراب من الذباب .. والذباب الأسود يعتمد على الريح فى التنقل كما تفعل ذبابة ( تسى تسى ) .. »

قال ( سينيه ) الفرنسى الذى كان قد سبقنا إلى القرية :

ـ « هذا عسير .. لقد قمنا باستئصال الذباب من هذا القطاع تمامًا .. »

ـ « توجد ميكروفيلاريا نشطة هنا .. وهى لم تأت من فراغ .. لقد انتهت نظريات التوالد الذاتى من زمن .. »

ـ « ومعنى هذا ؟ »

ـ « معناه أن مبيداتكم لم تعد تقتل الذباب .. هناك طفرة واضحة ، ولم يعد من حلّ سوى البحث عن مبيد جديد أغلى ثمنًا وأقوى تأثيرًا .. مبيد لا يندرج ضمن ما تستعملونه الآن .. »

تبادلنا النظرات ، ودنا من أذنى ( سينيه ) ليهمس فى استخفاف :

ـ « آها ! إن اللعبة تتضح أكثر فأكثر .. لو كنت لم تر الغربيين وهم يخدعون الدول النامية كى تشترى منتجاتهم ؛ فلا تدع الفرصة تفوتك ! »

ـ « هل تعتقد ذلك ؟ »

ـ « وأكثر .. عما قريب سيمكنك أن تعرف اسم الشركة المنتجة للمبيد الجديد ، وعندها تعرف اسم المجهول الذى يعرقل مشروعنا هذا !! »

بدأ الفأر يلعب فى عبى ـ كما يقولون ـ شعور غامر بالغباء انتابنى ، حين فطنت لهذا الجانب من الأمور .. كما كنت ألتهم قطع الشطرنج فى جشع وأنا ألعب مع ابن عمى فى صباى ، فقط لأدرك أننى أنساق ببطء نحو شرك مميت نصبه لى ..

هل أنا ساذج أحمق لا يفهم ما يجرى تحت الجسور ؟ أم أن (شيلبى) نصاب تقاضى الملايين ليعلن هذه الشهادة الزائفة ؟ أم أن (سينيه) يتذاكى أكثر مما تحتمله الأمور ؟

لن أعرف أبدًا ..

لو استمررت فى هذه الخواطر فلن تكون البارانويا آخر ما أصاب به ..

★ ★ ★

# ١١ ـ إنهم يخافوننا

عند الظهر اتجه بنا ( إبراهيم سامبا ) ـ بصحبة طياره البرتغالى الأثير ( ماريو ) ـ إلى إحدى قرى النهر ..

ونزلنا هناك وسط الغبار والعرق ، نتأمل المشهد من حولنا .. كان الفلاحون يمارسون حياتهم المملة المألوفة ، لكن لم أر ذلك الحماس المألوف والهرولة نحو الطائرة .. حتى الصبية بدوا أعقل وأرزن مما ينبغى .. إن الصبية الذين لا يركضون نحو طائرة واقفة فى أرضهم هم بالتأكيد غير طبيعيين إن لم يكونوا مرعبين ..

مشى ( سامبا ) وسطهم ، يتأمل وجوههم بحثًا عن إجابة ما .. وقال لى وهو يجفف عرقه بمنديله الكبير :

ـ « هذه القرية بالذات لها أهمية خاصة يا عاشر .. أنت تعرف أن تاريخ ( بوركينا فاسو ) هو بالضبط

تاريخ مملكة الـ (موسى) الغابرة ، التى جاء ملوكها من شمال (غانا) فى القرن الرابع عشر .. واستمر الأمر حتى عام 1896 ، حتى جاء الفرنسيون ليفرضوا حمايتهم على مملكة (واجادوجو) .. وفى عام 1919 صارت جزءاً من غرب أفريقيا الفرنسى .. وعام 1932 تم تقسيم البلاد ما بين السودان الفرنسى وساحل العاج ..

بعد هذا ... لا داعى لأن أحكى لك تاريخ البلاد المعقد .. أردت أن أقول إن هذه القرية كانت مركز ملوك الـ (موسى) .. وكانوا يحاولون ألا يختلط دمهم بدم الأهالى الذين يتكلمون السودانية ، لذا اقتصروا على اللغة الماندية التى لا أجيدها للأسف .. »

سألته وأنا أدنو من حشد من الأطفال يلعبون فى الطين :

ـ « هل لهذا أهمية ما ؟ »

ـ « لا .. أنا أحاول أن أضعك فى الجو لا أكثر .. »

وهنا تفرق الأطفال خائفين أمام عينى (ساميا) غير الفاهمتين ..

نظرت له نظرة معناها ( هل رأيت ؟ انا لا أتوهم شيئًا .. ) .. ومطّ هو شفتيه بمعنى ( هذا غريب .. لابد من تفسير سهل .. ) .. والتفسير كان عند زعيم القرية بالتأكيد ..

كان واقفًا أمام كوخه مع مجموعة من الرجال .. لم يكونوا يرقصون بالرماح ، أو يعدون آنية الطهى لسلقنا إذا جال هذا بخاطرك .. كانوا يقفون فى فتور وبعض العدائية ..

وكان الزعيم هو ـ طبعًا ـ صاحب أضخم ساقين بفعل داء الفيل ، وقد تدلت عقده اللمفاوية إلى ما يدنو من الأرض كثيرًا .. هذه هى القواعد .. فى ( أوغندا ) حيث قبيلة ( توركانا ) مصابة كلها بداء الحويصلات المائية(*) ، يغدو الزعيم صاحب أكبر بطن .. وهنا الزعيم هو صاحب أكبر عقد ليمفاوية ..

دنا منه ( سامبا ) وبدأ يكلمه بكثير من العسر .. لغة كلغة الصمّ والبكم كلها إشارات وصيحات .. لكن

---

(*) الحويصلات المائية أو hydatid cyst داء ينتقل للإنسان من الكلاب ، ولسوف نتحدث عنه بالتفصيل يومًا !

الزعيم كان حازمًا .. كان يشير إلى الطائرة ، ويتكلم ، وراح علية القوم العراة من حوله ـ وأكثرهم لا يرى شيئًا ـ يهزون رءوسهم موافقين ..

لم أفهم سوى فعل الطرد .. ومشيت معه إلى الطائرة وهو يردد بينه وبين نفسه :

ـ « غريب هذا .. حقًا لا أفهم .. »

ـ « ماذا قال بالضبط ؟ »

ـ « لم أفهم الكثير يا عاشر .. قال إنه لن يسمح لنا بالتعامل مع أهل قريته قبل أن ننظف من نجاستنا ! أما عن كُنه هذه النجاسة فلم أفهم ، أو هو غير راغب في الثرثرة .. »

وبدأت الطائرة تتمايل مرتفعة عن الأرض ، ومحركاتها تهدر .. ومن النافذة راح (سامبا) يرمق القرية التي لفظتنا بوجه مهموم ..

★ ★ ★

في المساء قدم (شيلبي) تقريره الذي عكف على كتابته طيلة اليوم ، وتلقى شيكًا بخمسة وعشرين ألف دولار مكافأة له ، ثم عاد عند منتصف الليل إلى

الكاميرون .. يا لها من مهمة مريحة هذه التى يمارسها .. كان التقرير بسيطًا جدًا ، ولو أعطونى ثلاثة آلاف دولار ، لكتبت خيرًا منه .. لكنه الحظ ..

يتلخص التقرير فى أن مشروع مكافحة عمى الأنهار يتعثر بعد نجاح ملحوظ .. والسبب هو :

1 ـ قلة العناية بوسائل المشروع وانعدام الصيانة ، مما أدى إلى خطر متزايد على حياة الأفراد . ولا يمكن أن يمرّ تحطم ثلاث طائرات دون سبب وجيه ، وخلال ثلاثة أشهر مرّ الكرام .

2 ـ تنامى المقاومة لدى الذباب ، مما يشى بعدم كفاءة المبيدات المستعملة .

3 ـ انعدام التوعية لدى القبائل ، وعدم التمهيد من قبل حكومات البلدان المختلفة ، مما يؤدى إلى صدامات محتومة ذات طابع عرقى أو دينى أو ثقافى .

ويرى ( شيلبى ) أن الحلّ يتركز فى :

1 ـ نظام محكم للصيانة تقوم به شركة أمريكية .

2ـ استعمال مبيدات جديدة وزيادة الأبحاث الجينيـة ، لتلافى حدوث طفرات أخرى .

3ـ دراسة الخلفية الثقافية والدينية للقبائل المقيمـة فى قرى الأنهار .

كـان هذا هو ملخص التقريـر الـذى كـان معقـدًا وطـويلاً جدًا .. وهذا فنّ حقيقى يجيده خبراء الصحة العالميـة : أن يحولـوا مـا تعرفـه جيـدًا إلـى معضلـة حقيقية عسيرة الفهم .. وكلهـم يدمن النقـاط المرقّمـة والصفحات التى تنتهى بـ (تابـع 3/6) .. إلـى آخر هذا الأسلوب الذى تعلمته جيدًا ..

وقد قرأ (سـامبا) هـذا التقرير بعنايـة ، ووضـع بضعة خطوط تحت بعض الأسطر ، ثم قال :

ـ « كل هذا يحتاج إلى مليارات .. المشكلة هى أن المشروع هائل ، يغطى مساحات غير مسبوقة .. إننـا نغطى نحو 1,32 مليون كيلومتر مربع يعيش فيه نحو ثلاثين مليون نسمة .. وعندما ينتهـى المشـروع عـام 2002 سـنكون قد أنفقنـا دولارًا على كـل واحـد من

المهددين بالمرض فى القارة كلها .. فلو قررت مجرد زيادة كمية المبيد بضعة ملليمترات ، لوجدت ـ مع مضاعفة الرقم ـ أن ميزانيتك قد زادت مليونًا من الدولارات .. »

ثم وضع عويناته ، وقال وهو يطوى التقرير :

ـ « إنهم يتمنون لى الفشل .. لا يريدون أن ينجح قائد أسود فى الفوز بالجائزة الكبرى لهذه الحرب .. وعندها سيقولون وهم يغمزون : أرأيت ؟ هذه القارة لا تستطيع أن تظل متماسكة أسبوعًا واحدًا من دون البيض .. »

فى تهذيب رقيق ، قال له (كليف) بمجاملته المعهودة :

ـ « هل ستستقيل يا سيدى ؟ »

ـ « بالطبع لا .. لماذا أفعل ؟ لست راغبًا فى مجد شخصى ، لكننى ببساطة أعرف هذه القارة جيدًا وأحبها بحق .. إنها تستحق ما هو أفضل .. »

واختلجت شفتاه قليلاً وأردف :

ـ « ثم إننى لا أثق بواحد آخر يمسك فى قبضته كل هذه الموارد .. »

وغادرت مكتبه مع (كليف) ـ رجل الصحة العالمية ثقيل الظل ـ وكان بطبعه مولعًا بالتآمر والنميمة ونقل الكلام محرّفًا .. لذا سألنى ما إن غادرنا المكان :

ـ « ما رأيك فى كل هذا ؟ »

بللت بلسانى شفتى الجافة وقلت فى كياسة :

ـ « الرجل محقّ .. هو خير من يتولى المشروع .. »

ابتسم فى خبث وقال :

ـ « على الأقل هو قد امتلأ .. المشكلة هى أن الوافد الجديد سيحتاج إلى فترة أخرى يمتلئ فيها ! »

ـ « هل تعنى ؟ »

نظر إلى الجدار وغمغم بلهجة العارفين ببواطن الأمور :

ـ « لا تكن جحشًا .. أنت تعرف أن هناك أكثر من حساب سرى فى مصارف سويسرا باسم الرجل .. إننى لأضحى بذراعى الأيمن لو كنت مخطئًا ! »

ـ « أنت مخطئ بالتأكيد .. ويمكنك البحث عن منشار جيد من الآن .. »

كنت أفهم البشر معتمدًا على حدسي .. وقلما أخطأت .. هو ذا ( سامبا ) لم يبدل سوى قميصين منذ عرفته ، ولا يملك سيارة سوى سيارة المشروع ، التي لا يستخدمها إلا لزيارة القرى الوعرة ، ويعمل في مكتبه من السادسة صباحًا حتى الواحدة من صباح اليوم التالي ..

هذا الرجل لا يملك ميلاً طبيعيًا للترف.. هذا الرجل صادق .. عيناه تشعان صدقًا وتعاسة وشرفًا .. وإلا فأنا جحش حقيقي كما يقول الأخ ( كليف ) بلغته الراقية ..

* * *



## ١٢ ـ هذا سينعش ذاكرته !

فى الصباح الباكر جاءت العربات تحملنا إلى المطار كالعادة ، للإشراف على عمليات الرش التى صارت أسبوعية فى موسم الأمطار .. وكان عددنا قد تدنى كثيرًا بين من مات أو عاد لوطنه .. يبدو أن المتحمسين بحق هم ( سينيه ) ، و ( كليف ) ، ورجل ( أطباء بلاحدود ) ، وهو فلبينى يدعى ( فرناند لوبيز ) .. دعك من العبد لله بالطبع ، فأنا مرغم على البقاء لأن ( بارتلييه ) لا يريد استردادى على ما يبدو .. يبدو أننى حققت حلم حياته بالتخلص منى للأبد ..

وكانت الحكومة هنا قد عينت حراسة مشددة على طائرات المشروع ، بحيث لم يعد أحد قادرًا على التسلل للتخريب .. هناك عدد لا بأس به من الحراس الأشداء المتوترين العصبيين ، الذين يمكن أن يفرغوا بنادقهم الآلية فى صدرك بلا مناقشة ، لو حاولت أن تمزح .. حراس سود الوجوه والقلوب والأفكار ، وهو ما راق لـ ( سامبا ) كثيرًا لأنه يغلق بابًا من أبواب الفشل ..

تقدمت نحو ( الهناجر ) - أعتقد أن هذا اسمها الصحيح - وبطاقة التعريف تتدلى على صدرى ، فكانوا يرمقونها مدققين ثم يسمحون لى بالعبور ..

كان حشد من عمال الصيانة يقفون جوار إحدى الطائرات ، ومعهم مهندس ألمانى غاضب ، يقومون بعمل ما .. هؤلاء بالتأكيد لا يضمّون متسللين ، ماداموا جميعًا يحملون بطاقات التعريف ..

تأملت وجوههم السوداء للحظة عابرة .. ثم ..

مهلاً ! أنا لن أنسى هذا الوجه أبدًا ..

★ ★ ★

وكان غبيًا .. بالواقع كان شديد الحمق كوعل ( الموس ) ، فلم يقدّم لى أية أعذار أو يختلق شيئًا .. لقد طوّح بحقيبته الثقيلة فى وجهى على الفور.. وولى الأدبار ..

★ ★ ★

صحت متوترًا وأنا أسد الطريق بجسدى :

- « هيه ! أنت ؟! »

من جديد اتسعت دائرتان من اللون الأبيض في وجهه ، وكما هي العادة تصرف بالغباء والخرق المعهودين .. انطلق يجري ، وكان عدّاءً من الدرجة الأولى .. بكثير من العسر يمكنك أن تتبين قدميه فوق الأرض .. لهذا يجلب الأفارقة الأمريكان كل ميداليات العدو لأمريكا في الدورات الأوليمبية ..

رحت أركض وراءه كالمحموم وأنا أصرخ :

ـ « مخرّب .. مخرّب ! »

كان بوسعه أن ينكر أنه هو المقصود أو يتهمني بالحمق ، لكن أعصابه كانت أوهى من تفكيره كما هو واضح .. وساقاه أسرع من الاثنين ..

كان يركض الآن في ممر هبوط طائرات ممتدّ بلانهاية ، أرض واسعة مستوية لا مكان للتواري فيها .. ولم يكن ينظر للوراء ..

رحت أركض وراءه منتظرًا فرصة ما .. لكن الهواء راح يجافيني أكثر فأكثر .. صدري يضيق ، والخناجر تنغرس في خصري .. والوغد ما زال بكامل لياقته ..

أين الآخرون ؟ يالهم من حمقى ! ألم يسمعوا كل هذا الصخب ؟

لو لم يكن هذا الفتى يتمتع بكراهيتى الشخصية ، لتركته وشأنه عند هذا الحدّ .. لكنى كنت أغلى غيظًا ، وتخيلت فى تلذذ ما سيحدث لو أمسكت به ..

لكن كيف ؟

ثم سمعت صوت محركات الهليوكوبتر ، وشعرت بهوائها .. هو أيضًا سمعه ونظر إلى الوراء .. إلى أعلى ...

ورأيت ـ على ارتفاع لايصدّق ـ طائرة الهليوكوبتر التى يقودها البرتغالى المجنون ( ماريو ) .. كانت تدنو منا بسرعة ، ثم دارت من حولنا ، وانقضت من جديد .. هذه المرة نحو الهارب الذى أربكه المشهد تمامًا .. رخّ حديدى أسطورى يهوى من الفضاء لينقض عليه ..

لقد اختار ( ماريو ) هذه الطريقة الأسرع لاختصار المطاردة .. مادام الأحمق الآخر يجرى فى فضاء واسع ..

راح الهارب يجرى فى اتجاه آخر ، فقط ليلحق به (ماريو) على ارتفاع خفيض جدًا يوحى بقرب الاصطدام ..

ترنح الرجل وعاود الركض مترنحًا .. لكن (ماريو) كان له بالمرصاد .. الآن تحول الأمر إلى لعبة سادية مثيرة للاشمئزاز .. واضح تمامًا أن البرتغالى - سليل مصارعى الثيران - يتسلى بذعر المسكين الذى راح يولول ، ويركض فى اتجاهات توحى بالجنون ..

تذكرت رياضة الـ (روديو) الهوائى - أين سمعت أو قرأت عنها ؟ - التى يمارسها الأمريكان مع الماشية من الجو ، حتى توقعت فى أية لحظة أن يثب (ماريو) ليمتطى ظهر الهارب ، ويلوح بقبعته صارخًا : ياهووووووه !

وجاءت النهاية المحتومة إذ ترنح الرجل كالسكارى ، ثم هوى على الأرض كتلة واحدة ..

وانحدر (ماريو) ليهبط بالطائرة على بعد أمتار منا ...

★ ★ ★

قال لى من نافذة الطـائرة ، وهو يلوك الـلادن فـى استمتاع :

ـ « بسرعة ! هات هذا الأحمق ولننطلق ! »

سألته وأنا أدنو برغم المروحـة التـى توشـك علـى قذفى للوراء أمتارًا :

ـ « ماذا ؟ ولن تنتظر الآخرين ؟ »

ـ « لن أفعل ! لـو جاءوا فلـن نستطيع استجواب الرجل .. »

فهمت الأمر .. إنها عملية اختطاف سريعة .. ونظـرت للوراء ، فوجدت عددًا من الأفارقـة وموظفـى المطـار قادمين .. لو كان الرجل بريئًا فسيظفر بحريته ، ولو كان عميلاً فسيظفر بـه رجـال الشرطة هنـا ، وفـى الحالين لن نعرف الحقيقة أبدًا ...

وهكذا اتخذت قرارى .. وجررته إلى الطائرة جرًا ، ثم ارتفعت بنا فى الوقت المناسب قبل أن يدنـو الجمـع منا ...

- « عسى أن يكون لدى (سامبا) من الصلات الحكومية ما يسمح بإخراجنا من هذا المأزق ! »

★ ★ ★

أشعل (ماريو) لفافة تبغ ، وقال دون أن ينظر للوراء :

- « عندك حبل فى مؤخرة الطائرة يا عاشر .. قم بتقييده الآن .. قيد ساقيه ويديه خلف ظهره .. بسرعة ! »

وجريت لأفعل كما قال .. فالرجل قوى ، ويملك - لو أفاق - القدرة على قذفنا فى الهواء جميعًا .. هذه أوامر أفهمها وأحبها ..

- « هل انتهيت ؟ حاول استجوابه بأكبر قدر من الشراسة ! »

شراسة ؟ كيف ؟

ضربت الرجل على خده مرارًا حتى فتح عينيه ، وصحت فى وجهه :

- « أنت ! قل من أرسلك ؟ »

كان يفهم الفرنسية .. لمحت هذا فى عينيه لكنه لم يجب .. شددته من أذنه كالأطفال ورحت أعتصرها ، وأنا أضغط على أسنانى لأبدو مرعبًا :

ـ « تكلم ! من أرسلك ؟ »

كان يفهم الفرنسية .. عرفت هذا من جديد حين بصق فى وجهى ، لكن البصقة لم تصل لحسن الحظ بسبب اهتزازات الطائرة .. وتخيلت نفسى جنرالاً نازيًا من الذين تعج بهم الأفلام الأمريكية .. أذرع الغرفة جيئة وذهابًا ، وكفّاى معقودتان خلف ظهرى ، أقول فى تؤدة :

ـ « رجل صلب أليس كذلك ؟ إن لدينا من الوسائل الفعّالة ما يجعلك تتكلم !! »

قال ( ماريو ) وهو يختلس نظرة للوراء من خلف منظاره الأسود ، ويمضغ لفافة تبغه ، وقد بدا عليه استمتاع شديد :

ـ « أنت شرس حقًا يا عاشر .. إن قلبى يوشك على التوقف ذعرًا ! »

ثم بلهجة عملية قال :

ـ « أربط طرف الحبل الذى يقيد ساقيه إلى هذا المقعد .. أربطه جيدًا ! »

لم أفهم ما يريد .. ففعلت كما طلب ..

فى اللحظة التالية نهض بعدما ثبّت الطائرة فى وضع عمودى ، واتجه إلى الرجل ليجره نحو الباب ! كاد صوابى يطير هلعًا .. لقد جن تمامًا ..

ـ « هذا سينعش ذاكرته ! »

ودون كلمة أخرى طوح بالرجل من الباب المفتوح ، وسمعنا صرخة الرعب المدوية .. كان الحبل قصيرًا ، واستطعت أن أرى الرجل يتدلى من ساقيه فى الهواء ، ويتأرجح وهو لا يكف عن الولولة والصراخ ..

ـ « ( ماريو ) !! أيها المخبول !! »

ـ « هذا خير ما لدى من وسائل الإقناع .. »

وعاد لمقعده ، ومن جديد انطلقت الطائرة دون أن تقتصد فى سرعتها أو تزيد من ارتفاعها ، نحو الأحراش ..

نحو المستنقعات التى تغصّ بالتماسيح ..

★ ★ ★

ها نحن أولاء الآن فوق مستنقع له منظر مخيف لا يوحى بالثقة ..

يهبط الملازم ( ماريو خونديراس ) إلى ما يعلو سطح الماء ببضعة أمتار .. فقط ما يمنع رأس أسيرنا من أن يسقط تحت الماء .. ثم فعل الشىء الذى كنت أعرف أنه سيفعله : توقف بالطائرة على هذا الارتفاع ، واسترخى فى مقعده ، وطوّح بقطعة من اللادن إلى فيه وراح يلوكها متلذذًا ..

صراخ الرجل لا ينقطع من أسفل .. إن رأسه يرتفع عن الماء ثلاثة أمتار .. ونظرت من عل ، فوجدت التماسيح الغافية فى الحرّ على ضفتى النهر قد بدأت تولى الأمر بعض الاهتمام ..

لن يلبث أحد هذه الزواحف الكسول ، أن يتثاءب وينهض ، ثم يهبط إلى النهر ليرى ما تقدمه له الأقدار من فرص .. وعندها .....

صحت فى ( ماريو ) :

ـ « كفاك هذا ! قد نلت ما يكفى من تسلية .. »

قال فى برود ، وهو يتفحص مقياس الارتفاع :

ـ « لست أبحث عن التسلية .. أنا أبحث عن معلومات .. لكنى لم أظفر بها بعد ! »

وكما توقعت رأيت جذعًا خشبيًا حرشفيًا يتحرك على الضفة ، ثم ينزلق إلى الماء فى صمت ، وبعد ثوان كان يسبح بالضبط حيث كان الأسير..

فى هدوء ارتفع ( ماريو ) بالطائرة بضعة أمتار ، ومن جديد توقف ..

هذه المرة كنت حازمًا ، فصحت :

ـ « ( ماريو ) ! إن الرجل سيموت بالصدمة العصبية ولن تظفر منه بشىء .. لو أردت الاستمرار فى هذا العبث فعليك قتلى أولاً ..لأنى سأبلغ هذا الذى يحدث للسلطات !! »

لم يردّ .. فقط مشى إلى باب الطائرة ، وراح يجذب الحبل الذى تدلى منه أسيرنا .. وأخيرًا تمدد البائس



وكما توقعت رأيت جذعًا خشبيًا حرشفيًا يتحرك على الضفة ، ثم ينزلق إلى الماء فى صمت ، وبعد ثوان كان يسبح بالضبط حيث كان الأسير . .

على الأرض يرتجف ويبكى بأسنان تصطك .. الحق أنه عانى بما يغسل كل أحقادى عليه ..

عاد (ماريو) إلى مقعد القيادة ، وقال وهو يرتفع مبتعدًا عن المستنقع :

ـ « ما ظننتك بهذا الحس المرهف .. لقد أخبرنا البروفيسور الأمريكى من وحدة (سافارى) أنك جربت القتل .. القتل البارد المتعمد .. ومرارًا ! »

صعد الدم إلى رأسى .. هذا هو المقلب الذى أعده لى (شيلبى) هنا ، وما كنت لأندهش لو لم يحدث .. لابد من شىء مؤذ .. حتى لو لم يستفد به شخصيًا ..

قلت وأنا أمنع نفسى من الانفعال :

ـ « لقد قتلت .. لكنى قتلت قتلة كانوا يصوبون سلاحهم إلى رأسى .. »

ـ « ليكن .. هلم ابدأ استجواب رجلك هذا .. »

وبصعوبة نجحت فى إعادة الزنجى إلى عالم الواقع .. لقد كان منذ ثوان يحلق معدوم الحيلة فوق تمساح متحمس ، ولن يدهشنى أن يكون قد جنّ للأبد ..

ـ « من الذى أرسلك ؟ »

قال بفرنسية غليظة لكنها مفهومة :

ـ « المستر .. المستر ( ناتينج ) .. إنه يأتى كثيرًا .. لقد منحنا الكثير من الدولارات .. لكنى لم انتزع سوى صمام من طائرة واحدة .. لم أتوقع أن تتهشم فى الجو .. حسبتها لن تقلع .. »

وانفجر فى بكاء هستيرى يتناسب والحس الدرامى للمشهد ..

ـ « منح من ؟ »

ـ « كلنا !! إنه ينفق المال بسخاء ، وفى النهاية يصارحك بأنه بحاجة لخدمة ما .. خدمة تتعلق بالطائرات .. البعض رفض التعاون معه ، لكن ( ماكيا ) و ( أنطوان ) وأنا وافقوا .. »

ـ « هل كنت تنوى تخريب شىء اليوم ؟ »

ـ « لا .. لا .. المراقبة لصيقة ..لم يعد الأمر بهذه السهولة .. »

ـ « وما جنسية هذا المستر ( ناتينج ) ؟ »

فى نفاد صبر صاح ( ماريو ) دون أن ينظر للوراء :

ـ « ليس هنديًا بالتأكيد يا عاشر .. إنه مستر ( لامسيو ) .. ويدفع بالدولار .. يالك من أحمق ! سله عن مكانه .. كيف نجده ؟ »

قال الرجل دون أن ينتظر سؤالى :

ـ « هو يجىء لنا فى نادينا مع ذلك الأمريكى من منظمة الصحة العالمية ! الذى يركب الطائرات معكم .. بالطبع لم نمسّ الطائرة التى اعتاد ركوبها .. »

هنا ـ فقط ـ استدار ( ماريو ) للوراء ، وأطلق سبّة برتغالية .. وفى اللحظة ذاتها قلت وقال فى دهشة :

ـ « ( كليف ) !! » ..



## ١٣ ـ إنهم لا يحجمون عن شىء ..

انقضى باقى النهار فى اتصالات مع السلطات البوركينية ، وكان على (سامبا) أن يستخدم صلاته كى ينقذنا من تهمة اختطاف مواطن وتعذيبه .. وكى يبرهن للناس هنا أن الميكانيكى مرتش حقًا ، وأن طاقم الصيانة مخترق بالكامل ولابد من استبداله .. كان هذا عسيرًا لكنه لم يكن مستحيلاً ..

وعند المساء كان مرهقًا كجواد قطع قارة كاملة ركضًا ، وبعينين منتفختين حمراوين استدعى (كليف) وأبلغه رسميًا أن المشروع مستغن عن خدماته ..

فى سماجة تساءل (كليف) :

ـ « هل لى أن أعرف المبررات ؟ »

ـ « لا مبررات .. إننى مدير المشروع وسلطتى مطلقة .. يمكنك الرحيل فى أى وقت تريد .. »

ـ « هذا شأنى يا سيدى .. أنت لا تملك هذا البلد .. »

- « هذا حق .. لكنى لا أرغب فى أن أراك داتيًا من اى فرد فى فريقى .. لا اريد أن اراك قرب طائراتى أو مخازن مبيداتى .. وقتها ساعمل على تأديبك .. »

- « هل هذا تهديد يا سيدى ؟ خُيل إلىَّ أننى اسات السمع .. »

- « ليس تهديدًا .. بل هو أمر واقع .. والآن يمكنك الانصراف .. »

بعد انصراف الأمريكى ، قلت لـ ( سامبا ) وأنا أرتجف :

- « هل رأيت نظرة الأفعى الغاضبة فى عينيه ؟ لابد من احتجاز هذا الرجل .. إنه خطر وسيعمل أى شىء ليؤذيك .. »

نزع عويناته ليجفف العرق الذى تزاحم تحت عينيه ، وقال فى إرهاق :

- « لا أستطيع اعتقاله .. فهو فرد مهم فى المنظمة .. ثم إن كل ما لدينا ضده هو كلام عامل

ضيانة جاهل .. لا أريد أن تنظر لى المنظمة نظرة المصاب بالبارانويا أو من يبحث عن شماعة لتعليق أخطائه .. دعه يرحل .. »

وأضاف وهو يعيد عويناته إلى موضعها على أرنبة أنفه :

ـ « ثم لا تكن طفلاً يا عاشر .. هل تتخيل أن كل هذا الذى يحدث سببه رجل واحد ؟ أراهن على أن ( واجادوجو ) ملأى بالعملاء الذين لا هم لهم سوى أن نفشل .. إن الأمر أكبر بكثير من حبكة ( الشرير يتآمر سرًا ـ الشرير يفتضح أمره ـ السعادة تعم الكون ) .. »

ـ « كما ترى يا سيدى .. »

★ ★ ★

وفى الصباح التالى ؛ خرج ( سامبا ) مبكرًا ليراقبنا فى أثناء انطلاقنا إلى قرى البحيرات .. كان عددنا قد انخفض كثيرًا جدًا .. لكنى كنت أعرف أن المشروع أكبر من عشرة رجال .. هناك جيش يعمل فى كل الدول المشتركة فى المشروع ، لكن المشكلة هى أن

القلب بدأ يتآكل .. الكوادر التى كان (سامبا) يحاول جعلها تفكر مثله وتحلم مثله ، تفرقت ما بين هارب وخائن وميت ..

وقف يراقبنا عاقدًا ذراعيه على صدره ، وهو يبتسم مشجعًا ، بينما نحن نثب إلى أماكننا فى السيارات (اللاندروفر) ، لنبدأ عملية خضّ الجبن .. معذرة .. أعنى رحلتنا الطبية ..

فجأة تقلصت ابتسامته وراح يحدق منكرًا فى السيارات .. ثم صاح :

ـ « قفوا !! »

فنظرنا له متسائلين ..

قال وهو يدور حول إحدى السيارات :

ـ « من الذى ألصق هذا الشعار الغريب على السيارات ؟ »

فى غباء سألته :

ـ « أليس هذا شعار مشروع عمى الأنهار ؟ »

صاح وهو يمد يده ليمزقه فى عصبية عن مؤخرة سيارتنا :

ـ « بل هو شعار اللعنة لدى قبـائل ( الموسى ) .. معناه أن قافلتكم ملعونة يحرم الكلام معها أو ملامستها .. هل رأيته فى أماكن أخرى ؟ »

ـ « علـى نيول كل الطـائرات الخاصـة بنـا .. لقد لاحظها ( شيلبى ) ذاته .. وعلق عليها .. »

ـ « هذا يفسـر كل شـىء .. إن هـذا الشـعار هو ( التابوو ) ذاته .. لهذا تجنبنا رجال قرى النهر ، ورفضوا الكلام معنا ، بل رفضوا مجرد التفسير.. لقد رأوا أكثر شعار يمقتونه يهوى عليهم من السماء كأنما الشيطان ذاته جاء ليملأ أرضهم جورًا .. حتى بعيونهم التى كاد العمى يفقدها أى نفع ؛ استطاعوا أن يروا الخطر .. مزق .. مزق !! »

وانهمكنا فى تمزيق كل أثر للشعار من حولنا .. ثم كلفنى ( سامبا ) أن أتولى انتزاع الملصق الكريه من فوق طائراتنا كلها ..

ـ « ولكن من ألصق هذا الشيء على حاجياتنا ؟ »

ـ « إن من يخرب طائرة يا بنيّ لا يجد مشكلة في إلصاق ورقة عليها .. أحدهم فعل هذا .. وفي الغالب لم تنفد حصيلة ألاعيب هؤلاء القوم بعد .. »

* * *

وكان يومًا مثمرًا بحقّ بعد ما تحول موقف القبائل مائة وثمانين درجة .. لقد رحبوا بنا ، وسمحوا لنا بسحب عينات من دمهم ومن جلودهم ..

كان لانتزاع الشعار مفعول السحر ، وقد اندهشت لأننا لم نلحظه إلا الآن ..

وهكذا بدا أننا تخلصنا من عقبتين مهمتين ...

وعند الظهيرة نصب رجالنا خيمة الدواء إياها ، ورلحوا يتفقدون الأسماء بمعونة زعيم القرية ، وبدأت طقوس توزيع أقراص الأيفرمكتين ( مكتيزان ) .. المشكلة في هذا العقار أن المريض لا يستطيع التوقف عن تعاطيه في موعد سنوي ثابت .. فهو لا يقتل الديدان البالغة الحية في الجلد ، بل يكتفي بقتل أطفالها من ( الميكروفيلاريا ) ، وهكذا لابد ممن يلاحق المريض

ويتذكر الميعاد الذى تناول فيه القرصين العام الماضى ، وإلا لن يهتم المريض بالأمر .. يحتاج هذا إلى نظام توثيق محكم ، وإلى ملفات إلكترونية دقيقة .. وإلى تحويل يوم تعاطى العقار إلى مناسبة رسمية لكل قرية على حده ..

سينتهى هذا الكابوس ـ لو أبيد الذباب ـ عام 2002 إن شاء الله .. عندها تكون الديدان البالغة قد شاخت أو ماتت .. ويمكن لمنظمة الصحّة العالمية أن تعلن الامتناع عن توزيع العقار ، كما أعلنت من قبل عدم الحاجة للتطعيم بالجدرى ، لأنه اختفى من على ظهر الأرض ..

سيكون هذا التاريخ عيدًا لدى شركة (ميرك شارب آند دوم ) التى سيسرها بالتأكيد التخلص من هذه الغرامة الدائمة ، التى دفعتها لها الأريحية ..

* * *

كانت طقوس ابتلاع العقار مستمرة ، وهنا لاحظت الممرضة السويدية شيئًا ما .. جذبت كمى بيدها ، فقلت لها فى غلظة : إننى لا أحب أن يجذب أحد كمى ،

وإنها لو كانت رجلاً لجذبت كمها ، لترى إن كان هذا شعورًا محببًا .. لكنها واصلت الجذب وأشارت إلى أحد القوم واقفًا جوار أحد الأكواخ ..

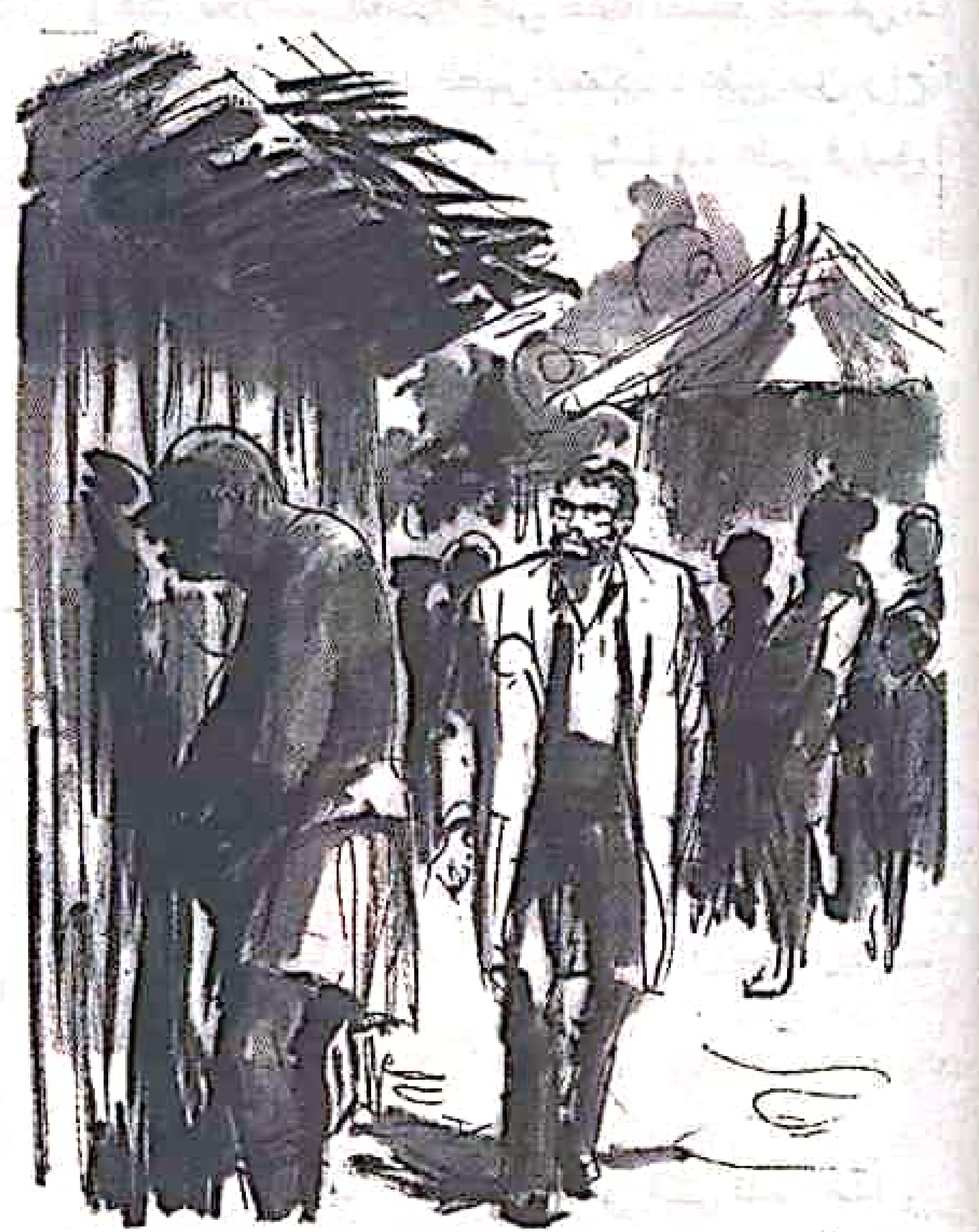
كان قد ألصق بطنه المتدلى بجدار الكوخ ، وراح يرتجف مرارًا ، ثم راح يترنح ، وفى اللحظة التالية أصدر صوت الـ ( أوع ) المميز ـ يسمعه الغربيون ( أوج ) ـ وأفرغ ما بمعدته ثم تهاوى على الأرض ..

هرعت لأرى ما به .. فوجدته غارقًا فى عرق غزير ، وقد تقلصت حدقتاه .. المشهد الخالد للتسمم بالمبيدات الحشرية .. لكن هذه القرية لم تر مبيدات حشرية منذ شهر .. وللحظة شلت قدراتى العقلية ، أما الممرضة فلم تفعل .. صاحت بصوت رجولى جهورى :

ـ « أوقفوا إعطاء العقار !! هاتوا بعض ( الأتروبين ) هنا !! »

وفى اللحظة التالية سقط ثلاثة سود آخرون وهم لا يكفون عن القىء ..

* * *



كان قد ألصق بطنه المتدلى بجدار الكوخ ، وراح يرتجف مرارًا ، ثم راح يترنح ، وفى اللحظة التالية أصدر صوت الـ (أوع) المميز !

وهكذا تحولت العملية إلى حالة تسمم جماعى ، وطلبنا المزيد من المدد الطبى لاسلكيًا ، على حين راح مندوب شركة الدواء ـ الذى يشرف على فريق التوزيع ـ يصيح فى ذهول :

ـ « هذا عبث متعمد ! هناك من تلاعب بدوائنا ! »

ولم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء كبير لفهم هذا .. لاذنب للشركة فيما يحدث .. لقد تفحص أحدهم عبوات الدواء الموضوعة فى علب بلاستيكية كبيرة مختومة ، فوجد أن بعض العلب التى لم تُفتح بعد قد تمزق خاتمها ..

لقد جرى استبدال الدواء خلسة فى مخازن (ولجادوجو ) .. استبدلوا به أقراصًا لها ذات المظهر ، لكنها تحوى مركبًا فوسفوريًا عضويًا .. أى ـ بالعربية ـ تحوى سمًا زعافًا !

★ ★ ★

لا تسلنى بعد هذا عن الفوضى التى تلت هذا .. طائرات من منظمة الصحة العالمية .. عربات إسعاف ..

خبراء من وزارة الصحة هنا .. عينات .. تحقيقات .. قئ .. صراخ .. دموع ..

لا أعرف من يحاربنا .. لكنه يلعب بقذارة واضحة .. يضرب تحت الحزام بلا تحفظ .. كله إلا الدواء .. يمكن المزاح فى كل شىء إلا الدواء .. أن ينتظر الطبيب والمريض الشفاء فلا يجئ إلا الموت الداهم .. إن من يبدل الدواء بسمّ لهو شخص فاق قدرات الشرّ لدى الخيال الآدمى .. وإننى لأتمنى بحق لو تشرفت بمقابلته ..

وهكذا انتحيت جانبًا ..

جلست على حجر جوار كوخ.. يداى ساقطتان إلى جوارى ، ونظرة غبية على وجهى .. ذبابة سوداء وقفت على معصمى ، فلم أجد مجرد القوة كى أطردها .. لقد انتهى كل شىء .. إن أعداء ( سامبا ) جبابرة وليس لى مكان فى هذه الحرب .. لقد فشل مشروع عمى الأنهار ولن تقوم له قائمة .. ليس بعد ما حدث .. لن تسمح الحكومة البوركينية باستمرار المشروع ، ولو سمحت فلن يتعامل معنا القوم .. ولو تعاملوا فمن يضمن ألا يتكرر الشىء ذاته ؟

لقد حان الوقت كى أعود إلى وحدة (سـافارى) .. كفانا قتالاً للطواحين .. كفـانا تحديًا لقوى هى كالأشباح موجودة فى كل مكان .. عدو لا نعرف شكله ولا عدده ولا هدفه ..

★ ★ ★

وعند المساء دخلت مكتبه الذى ازدحم بالسـادة المهمين جدًا .. وانعقدت سحب التبغ فـى هوائـه الحارّ .. كان (سامبا) مهمومًا بحق بعد نهار عصيب ، لكنـه يحاول الابتسام .. قلت له فى هدوء :

ـ « حسن يا سيدى .. أنا راغب فى إلغاء انتدابى هنا .. »

نظر لى مليًا ثم قال :

ـ « ليكن يا عاشر .. لا ألومـك كثيرًا .. أعتقد أن مديرًا جديدًا للمشروع آت قريبًا .. »

ـ « أحقًا يا سيدى ؟ »

ـ « سيكونون حمقى لو لم يفعلوا .. لكنـى مستمر فى مهمتـى حتـى يقولوها صراحـة .. إننـا عاكفـون

على وضع خطة لاستخدام مخازن جديدة تحت حراسة الجيش .. »

جذبت مقعدًا وجلست غير مدعو ، ودنوت منه ليكون كلامنا همسًا :

ـ « كل هذا الحماس مريب يا سيدى .. مستحيل أن يحدث كل ما يحدث من أجل إثبات أن الأسود عاجز عن الإدارة .. هناك غرض قوى ملموس .. غرض يمكن ترجمته إلى مال أو قوة .. »

ردّ على همسًا بدوره :

ـ « إن الاحتمالات كثيرة .. مثلاً الجالسون هنا .. هل ترى هذا الأصلع ذا العوينات وربطة العنق الخضراء ؟ إنه مندوب شركة ( بايو ـ سايد ) .. وهو يعرض علينا المبيد الجديد الذى انتجته شركته ، وهو قادر على إبادة السلالة (SRII) سبب مشاكلنا .. أما الآخر .. هل تراه ؟ إنه الذى يرشف القهوة الآن .. هو رئيس إدارة التسويق بشركة ( جوسلين ) .. وهى تقدم لنا طريقة مأمونة ورخيصة لتوريد عقار ( إيفرمكتين ) الذى أنتجته معاملها .. وجميعهم يلمح

برشاو لا بأس بها .. كما ترى هناك مستفيدون كثيرون من الفشل .. »

تنهدت وقلت وأنا أنهض :

ـ « لن أعرف الحقيقة أبدًا يا سيدى .. أرى أن تسمح لى بالرحيل قبل كل شىء .. »

لم يقل شيئًا .. لم يلمنى أو يغرينى بالبقاء ، بل هزّ رأسه موافقًا وقال إنه سيرسل ( فاكس ) إلى الكاميرون يبلغهم بقدومى ... وأضاف :

ـ « لم يعد لدى العاشر ما يقدمه .. »

ـ « هذا صحيح .. »

* * *

ومشيت شارد الذهن فى شوارع ( واجادوجو ) .. هذه آخر مرة أرى فيها هذه المدينة فى حياتى .. ولست على هذا نادمًا ..

هذا ليس جبنًا ولا تراجعًا .. إن هذه الحرب ليست حربى .. لو كانت البلهارسيا فى مكان الأونكوسيركا لتحمست أكثر ..

لكنها ليست حربى .. ليست من أجل قومى .. وبالإضافة لهذا نخسرها باستمرار .. فما جدوى الاستمرار ؟ ما جدوى القتال ( السيزيفى ) لوهم ؟

وبينما أنا ماش شارد الذهن ، أصطدم بهذا وأحتك بذاك ؛ سمعت صوتًا مألوفًا يقول لى بسخرية :

ـ « ليس هذا هو الطريق إلى ( أنجاواتديرى ) يا عاشر ! »

استدرت فوجدت من يقف على بعد أمتار منى ، يركب سيارة جيب مكشوفة تذكرك بسيارات الجيش .. وقد استرخى للوراء ليبدو سمجًا واثقًا .. بالواقع لم يكن بحاجة لهذا ، لأنه سمج بالفعل دون جهد .. إنه ( كليف ) !

تظاهرت بأننى لم أسمعه وواصلت السير ، كما تفعل فتاة مهذبة يعاكسها شاب قليل الحياء .. لكنه تقدم بالسيارة بضعة أمتار ليكون بمحاذاتى ، وراح يسير بسرعة الرجل العادى وهو لا يكف عن الثرثرة ..

قال :

ـ « أنا أعرف أننى أبدو وغدًا .. لى ذات ملامح ( الفيللين )(*) فى الأفلام .. لكن هذا لا ذنب لى فيه ولا يعنى أن ما يُقال ضدى صحيح .. لو كان كل ثقيلى الظل مجرمين لامتلأت السجون عن آخرها ! »

ثم أضاف وقد توقف بسيارته لأننى توقفت بدورى :

ـ « الأمر بسيط جدًا .. هناك كافتيريا لا بأس بما تقدمه .. سنتناول شطيرتين من الجبن دون خضر حتى لا يقتلنا الزحار الأميبى ، ونتكلم .. هل ستخسر شيئًا ؟ »

فكرت فى الأمر فوجدت أننى لن أخسر شيئًا بالفعل .. إن فى حذرى منه شيئًا طفوليًا مهينًا يذكرنى بحذر الأطفال من الغرباء لأنهم ( وحشين ) .. هذا الرجل لن يستطيع إيذائى لأننى سأحطم وجهه لدى أول بادرة عدائية ..

وهكذا جلسنا فى تلك الكافتيريا البوركينية ، ورحت أسمع دفاع ( كليف ) عن نفسه ..

---

(*) الفيللين Villain هو تعبير دارج عند السينمائيين ، ويعنى دومًا الوغد .. أو شرير الفيلم المعادى للبطل على طول الخط .. ويستعمل فى العربية الدارجة بنفس نطقه الغربى ..

★ ★ ★

# ١٤ـ شكوك .. شكوك

قال ( كليف ) بفم ملىء بالطعام :

ـ « لم يسأل أحدكم نفسه قط عن تاريخى المشرف لدى منظمة الصحة العالمية .. وعن كفاحى .. فقط استمعتم إلى ما يقوله مخرّب ، وصدقتموه .. دون دليل ولا أى شىء .. هل .. هم هم ! هل خطر لك أن هذا الميكانيكى لا يعرف الفارق بين إنجليزى وأمريكى ؟ إنه يرانا من بعيد نتحدث الإنجليزية التى لا يفهمها فيما بيننا .. عندها يقول أى شىء .. ولو أجريتم مواجهة ما ، لقال إنه لم يرنى قط .. »

قلت له فى حيرة :

ـ « أتراك تتحدث عن الإنجليزى الآخر ؟ دكتور ( هربرت مونتجمرى ) ؟لكنه لا يبدو من هذا الطراز .. »

ابتسم ونظر إلى خارج الواجهة الزجاجية وقال :

ـ « وكيف يبدون حين يكونون من هذا الطراز ؟ »

ـ « يبدون مثلك ! »

ـ « شكرًا.. »

★ ★ ★

قال وهو يرشف القهوة :

ـ « أنا أكره أن أرى ( إبراهيم سامبا ) يفشل .. لقد عانى الرجل كثيرًا ، وبأمانة لو فشل فلن يكون هناك شىء عادل فى العالم . لست براغب فى العودة إلى المشروع .. أنت ترى أنه لا يمنح شيئًا من ترف أو مال أو راحة .. فقط أنا ... »

وابتلع ريقه باحثًا عن كلمة ثم أردف :

ـ « .. أنا أمقت أن أرى المخلصين يخسرون .. هذا يحدث طيلة الوقت ، إلى حدّ أننى راغب فى تغيير هذا على سبيل الملل .. »

ـ « ولكن .... »

رفع يده ليسكتنى ، وقال :

ـ « الحقيقة هى أن اللعبة أكبر بكثير مما تتصورون .. إن أعداء ( سامبا ) هم خليط من شركات الدواء التى

تحاول إزاحة عرض ( ميرك شارب ) الكريم هنا ، وليكونن الدواء الجديد باهظ الثمن يفتح باب الثراء لتلك الشركات الأخرى ..

« هناك كذلك شركات المبيدات التى ستجد فى مشروع عمى النهر باب رزق لايصدق .. من الواضح أنهم فى سبيلهم لإزاحة المبيدات السبع المستعملة الآن ..

« ثم يجئ الدور الأكبر لشركات التعدين الأمريكية التى تريد أن تحتكر التنقيب عن المعادن هنا .. إن ( بوركينا فاسو ) غنية حقًا بالذهب والبوكسيت والمنجنيز والحديد .. لكن مهنة التعدين لا تمثل أكثر من 1 % من الدخل القومى ، ويمكن القول إن ( بوركينا فاسو ) منجم ثرى لم يمسه أحد بعد ..

« المشكلة هى أن هذه الشركات بحاجة إلى أراضى الأنهار بشدة ، وقد تحالفت معها الذبابة السوداء لتجعل الأهالى يتركون أراضيهم هذه .. لم يعد أحد يزرع فى أرض تحمل العمى أو ما هو أسوأ ..

« لكن القضاء على عمى الأنهار ـ بفضل ( إبراهيم

مالك سامبا ) ـ صار ذاتيًا .. وبدا لحكومة ( بوركينا فاسو ) أن الفرصة متاحة لاستصلاح ملايين الفدادين الزراعية ، وإعادة توطين القوم بها .. هذا شيء مهم جدًا بالنسبة لموسم الجفاف الحالى .. إن ( بوركينا فاسو ) لاتعرف الاستقرار ؛ والانقلابات تتم بها بنفس سرعة حوادث السيارات ..

« هكذا رفضت الحكومة أن تمنح حق الاحتكار لتلك الأرض الزراعية الخصيبة .. إن الخبز أهم من الذهب على كل حال ..

« الآن شعرت الشركات أنها خسرت الكثير .. وأن العائق الوحيد لها هو رجل أسود على خديه آثار ندوب ساحر القبيلة ، واسمه هو ( إبراهيم مالك سامبا ) ..

« هل فهمت ؟ »

ـ « والمشكلة هى أنه غير قابل للإفساد .. »

ـ « حقًا .. أنا أعرف هذا .. كنت أتسلى بإطلاق الإشاعات لا أكثر ، وإننى لأعتذر .. »

وابتلع ما تبقى فى قدحه وقال :

ـ « سليب ! إن ( سامبا ) لايعرف كل هذا ولايعرف حقيقة الفريق المحيط به .. أنا رأيت ( ماريو ) طياره

البرتغالى الأثير ، يلصق بنفسه ذلك الملصق على الطائرات ، ولم أعرف المقصود بهذا وقتها ! »

فى احتجاج صحت :

- « لا .. لا .. كله إلا هذا ! ( ماريو ) صادق ، وقد عذب الميكانيكى بإخلاص حقيقى ! »

- « وماذا يضيره من هذا ما دام الرجل لا يعرفه ؟ »

وفرد أصابعه ليعدّ عليها ..

- « خذ عندك الإنجليزى .. والإفريقيين .. والفرنسى ( سينيه ) و ... »

- « و ( سينيه ) ؟ أنت مصاب بالبارانويا ! »

- « لقد رأيته يفرغ حقيبة ملأى بالذباب فى إحدى قرى الأنهار .. فعلها خلسة ولم يره أحد .. ولم أفهم أى شىء حتى بدأت الطفرات تظهر .. هذا الفتى حصل على الذباب المعدّ معمليًا من مكان ما .. ربما من الخارج .. وسرعان ما يتكاثر الذباب ، وتحمله الريح بعيدًا ويغدو مشكلة بيولوجية جديدة ! باختصار كل الباقين على قيد الحياة ولم تخرب طائراتهم هم مدسوسون على ( سامبا ) .. »

كنت مذهولاً أتنفس بكثير من العسر ، ومن جديد عاودنى شعور السذاجة المهين .. لكن من قال إن كلماتك صحيحة يا (كليف) ؟ إننى لم أرتح لك من اللحظة الأولى ، ولا أجد سببًا يدعونى لتغيير هذا الرأى ..

كلمتك أمام كلمة كل من أحترم من رفاقى هنا .. فمن أصدق ؟

قلت له بلهجة من لا يصدق ، والذى بدأ صبره ينفد :

ـ « وما هو الإثبات غير كلماتك ؟ »

ـ « لا إثبات .. لا أحتكم إلى أى نوع من الوثائق .. عليك أن تثق بى وأن تنقل كلماتى هذه لـ (سامبا) .. لو أراد أن ينجح فعليه أن يتخلص من فريق عمله .. »

ـ « أنا قد تركت العمل هنا .. »

ـ « أعرف .. لكن كلمة واحدة تقولها له لن تؤذى أحدًا .. جرب فلن تخسر شيئًا .. »

هنا دخل الكافتيريا رجل ضخم يرتدى قميصًا خفيفًا عقده على خصره .. وكان أصلع الرأس تمامًا ؛ لكنه استغنى عن ذلك بعقص الخصلات الباقية منه على شكل ذيل حصان يتدلى على قفاه .. وكان الوشم يتناثر على عضديه العاريين ..

الخلاصة أنه بدا لى يحمل كل صفات البلطجى .. والغريب أنه دنا من منضدتنا وجلس من دون دعوة ، ولم يقل سوى:

ـ « هاى (كليف) ! »

نظر لى (كليف) وقال وقد سمع ما يجول بذهنى :

ـ « هذا هو الدنمركى (هانز سيلستين) .. مرتزق قديم ومثير للمتاعب أينما حلّ .. يمكنه أن ينظم لك انقلابًا حيثما أردت ، أو يفجر لك أى مكان ، وفى أوقات الفراغ يمكنه أن يلعب دور المخبر الخاصّ ويراقب أعداءك .. »

كنت أعرف هذا النمط من الرجال قناصى الفرص ؛ فإفريقيا تغص بهم .. لكن ما علاقة رجل كهذا بخبير صحة عالمية مثل (كليف) ؟

من جديد سمع (كليف) أفكارى فقال وهو يبتسم للرجل ، والرجل يكشف عن أسنان ذهبية مرعبة :

ـ « لقد ساعدنى (هانز) فى الحصول على كل ما أقوله لك من معلومات .. ونصيحتى هى أن تقدّمه لـ (سامبا) .. »

كدت أقول له إن ( سامبا ) طبيب محترم لا يتعامل مع هذه الحثالة البشرية ، ثم وجدت أن إغضاب هذا الجبل الآدمى ليس من الحكمة فى شىء .. فقلت ردًا مخففا :

ـ « ( سامبا ) لا يستخدم القوة أبدًا .. »

ـ « هو أحمق لو لم يفعل .. وعلى كل حال ( هانز ) هنا دومًا فى هذه الكافتيريا ينتظر التعليمات والمال طبعًا .. إن الكافتيريا راقية لا تناسب وجوده ، لكنه يغرس مطواته أمامه فلا يجرؤ أحد من النادلين على طرده .. أعرف أنك ترفض هذه الأساليب تمامًا ، لكن حين يتآكل القانون تغدو القوة هى القانون .. وصدقنى إن القانون متآكل تمامًا فى مشروع عمى الأنهار هذا .. »

ودون كلمة أخرى ألقى على المائدة بثمن مشروباته وحده ، ونهض ومعه العملاق الدنمركى ...

★ ★ ★

مبلبل الفكر قررت أن أتجه للقاء ( سامبا ) قبل أن أسافر .. كان الوقت مساءً فى مركز مكافحة عمى الأنهار .. وقد عاد الرجال منهكين ليلعبوا الورق أو يشربوا المثلجات ، وقد خلعوا القمصان والأحذية ،

من ثم تصاعدت الرائحة التى حدثنى عنها (كليف) يوم جئت هنا ..

غريب هذا .. هو ذا (سينيه) و سواه ممن أعتبرهم أصدقائى .. لكن أحدهم لم يكلف خاطره بالكلام معى أو إلقاء مزحة أو وداعى .. هل اعتبرونى خائنًا لأننى نويت العودة إلى وحدة (سافارى) ؟ أم ماذا ؟ بالواقع يوشك ردّ فعلهم أن يكون عدائيًّا تمامًا ..

وقرعت الباب الموصد الذى كتب عليه (مدير المشروع) ودخلت .. كان (سامبا) جالسًا كعادته يطالع التقارير اليومية ويمهرها بتوقيعه ، وأمامه جلس (ماريو) مسترخيًا يمضغ اللادن كعادته .. فلما رآنى هز (سامبا) رأسه وسألنى :

ـ « ألم تسافر بعد ؟ »

ـ « ليس دون وداع أخير يا سيدى .. »

ـ « أراك أمضيت يومًا جيدًا فى كافيتيريات (واجادوجو) ! »

نظرت له بدهشة .. ثم نظرت إلى (ماريو) الذى

كان يضع عويناته السوداء ، مما جعل تبين تعبيراته مستحيلاً .. هو من رآنا .. هذا واضح .. سرعته فى المضغ تقول هذا بوضوح ..

قال ( سامبا ) وهو ينظر لى بحزم :

ـ « من ليس معنا هو ببساطة ضدنا .. وأنت تواجدت لفترة طويلة مع مرتدّ لفظه هذا المشروع .. مرتدّ نعرف جيدًا أنه ضدنا .. »

ثم أشار إلى ( ماريو ) وقال :

ـ « الملازم ( ماريو خونديراس ) رآكما معًا .. وقد ذهل لفترة لا بأس بها ، ثم لم يجد تفسيرًا إلا نفس التفسير الذى توصلت إليه .. والآن يا دكتور ( عبد العظيم ) يجب أن يكون مفهومًا أنك شخص لا يلقى أى ترحيب فى مكتبى .. »

★ ★ ★

## ١٥ ـ الخاتمة ..

قلت لـ ( سامبا ) محاولاً انتقاء كلماتى :

ـ « أفهم يا سيدى وجهة نظرك .. لقد فقدت كل ثقة بمن حولك حتى صرت تضرب بالخنجر من وراء الستائر مثل ( هاملت ) .. لكنك فى هذه المرة أصبت صديقًا مخلصًا .. »

راح يفكر قليلاً ثم هز كتفيه ، وقال بلهجة تقريرية :

ـ « طلباتك ؟ »

ـ « الانفراد بك الآن .. وبعدها أرحل إلى ( أنجا واتديرى ) .. »

ـ « ليكن .. ( ماريو ) ... »

وأشار للطيار البرتغالى كى يغادر المكان .. فنظر لى هذا فى برودة ثم غادر الغرفة ..

بعد دقيقة من الصمت تناولت قلمًا وورقة من أمام ( سامبا ) وكتبت :



وأشار للطيار البرتغالى كى يغادر المكان . . فنظر لى هذا فى برودة ثم غادر الغرفة . .

ـ « هل يدخل الغرفة أحد فى غيابك ؟ »

قال بصوت عال مندهش :

ـ « لا أحد سوى ( ماريو ) .. ولكن .... »

رفعت إصبعى إلى شفتى منذرًا .. وبدأت أشرح له كيف أن لقائى بـ ( كليف ) تم بطريق الصدفة ، لكنى فى الوقت ذاته كنت أدون على الأوراق ما يلى :

ـ « ثمة احتمال لابأس به فى أن تكون هذه الغرفة ملغمة بأجهزة التنصت .. لو أمكن إثبات هذا فهل توجه الشك إلى ( ماريو ) ؟ »

مدّ يده السوداء المكتنزة إلى قلم جاف آخر ، وكتب لى بالمقلوب طبعا ، وجوار سطورى :

ـ « نعم .. »

كتبت على الورقة وأنا مستمر فى الكلام بصوت عال فى مواضيع أخرى :

ـ « إذن حاول إثبات هذا .. إن ( كليف ) مصرّ على أن كل من هنا عملاء لشركات التعدين والمبيدات والدواء .. حتى ( ماريو ) .... »

ـ « ولكن هذا الأحمـ .... »

من جديد رفعت إصبعى إلى شفتى منذرًا .. وواصلت الكتابة :

ـ « أعرف .. كلمته ضد كلمتهم .. لكنى أوصيك أن تأخذ حذرك ، وأن تأتى بطاقم عمل جديد غير مُخترق .. يمكن إثبات صحة كلمات ( ماريو ) بمجرد فحص الحجرة بحثًا عن أجهزة تنصت .. »

ثم ألقيت القلم على المنضدة ونهضت ، فقال لى وهو يمزق الورقة :

ـ « من جديد يا دكتور ( عبد العظيم ) أنا لا أثق بكلامك .. ومن جديد يا دكتور ( عبد العظيم ) يجب أن يكون مفهومًا أنك شخص لايلقى أى ترحيب فى مكتبى .. أنت مطرود ! »

هززت رأسى .. لقد توقعت هذا على كل حال ، لكنى أنهيت المهمة أمام ضميرى ، ولم يبق سوى أن يعمل هو فكره وحكمته كما يريد ..

وهكذا غادرت الغرفة فى تهذيب .. ولم أنظر ورائى لمن يحيطون بى ، وسمعت ( ماريو ) يقول فى

تهكم شيئًا ما بالبرتغالية .. أنا لا أفهم حرفًا من لغته لكنى أعرف أن هذه سبّة .. لقد أطلقها مرارًا فى أوقات الغضب من قبل ..

استدرت نحوه محنقًا وكوّرت قبضتى ، وصحت :

ـ « ماذا تقول ؟ »

مضغ اللادن بسرعة أكثر ، وأطلق بالونًا صغيرًا لزجًا ، ثم قال بعد ما انفجر :

ـ « أنا لم أقل شيئًا .. »

ـ « بل قلت .. »

ـ « كف ياعاشر عن الظهور بمظهر الأحمق .. كفاك هذا ! »

هنا وثبت نحوه وقد غلى الدم فى عروقى .. كنت أنوى تمزيقه ـ لو منحنى الفرصة طبعًا ـ لكن المتحمسين المحيطين بنا منعوا الاشتباك .. وخرج ( سامبا ) من مكتبه ليصيح فى حنق وغلظة :

ـ « كفى ! لا أريد رعاعًا هاهنا .. أنت يا عاشر ! لقد قلت لك إنك مطرود من قبل .. »

تملصت من أيدى المحيطين بى ، وأعدت تنسيق ثيابى وقلت :

ـ « حقًا يا سيدى .. للحظة نسيت هذا .. أنا آسف ! »

واتجهت للباب العتيق ففتحته وخرجت .. وسمعت من وراء ظهرى السبة ذاتها يكررها ( ماريو ) لاستفزازى ، لكنى صممت على أن ينتهى الأمر عند هذا الحدّ ..

ونظرت للمبنى العتيق من الشارع لكنى لم أره ..

كان الدمع يغرق عينىّ ...

★ ★ ★

هأنذا أغادر البلاد بفضيحة .. ربما أنا مطعون فى شرفى كذلك ..

وقفت فى المطار أنتظر موعد الطائرة بفارغ الصبر .. سأعود إلى وحدة ( سافارى ) حيث كل الوجوه الحبيبة ، وأعتزل الناس فى غرفتى أيامًا لا أكلم فيها أنسيًا ..

يمكن ـ بلا شك ـ القول إن انتدابى لم يشرّف وحدة ( سافارى ) كثيرًا ، ولم يحسن العلاقات بينها ومنظمة

الصحة العالمية على الإطلاق .. حتى الصداقة لم أحظ بها .. فأنا أترك خلفى أعداء من كل شكل ولون ولغة ..

لن يستطيع ( بارتلييه ) أن يفخر بى أبدًا .. من يدرى ؟ ربما ينهى تعاقدى كذلك .. أمى .. أين أنت ؟ أين كتفك الحبيب الذى يضوع برائحة الحبهان ( الهيل ) لأبكى عليه فشلى ؟

هنا شعرت بمن يضع كفه على كتفى..

★ ★ ★

قال ( كليف ) وهو يرشف ما بقى من قهوة فى قدحه :

- « لا بأس .. إنما هم لا يعلمون .. لا تجعل هذا يفقدك احترامك للرجل العجوز .. »

و ( الرجل العجوز ) - وينطقها ( أولمان ) - تعبير أمريكى يعنى الأب أو صاحب العمل أو المدير .. قلت له :

- « المشكلة هى أننى أحبه ، وما كنت لأتضايق لو كان شخصية كريهة .. إننا بحاجة دائمة إلى أن

يحترمنا هؤلاء الذين نحترمهم .. هؤلاء الذين نراهم مثلاً أعلى .. هذا يمنحنا احترامًا لأنفسنا ذا مذاق خاصّ .. »

ـ « لا عليك .. »

ثم أردف فى استمتاع وهو ينظر إلى ساعته :

ـ « دعنى أخبرك بما سيحدث يوم الثلاثاء القادم .. إن اجتماعًا مغلقًا مهمًا سيعقد فى قاعة المؤتمرات بفندق ( ماركوت ) فى ( واجادوجو ) .. عنوان الاجتماع هو : ( القارة السوداء : المشكلة والحلّ ) .. عنوان مبهر يحمل رائحة السلام وتعاون الشعوب ، لكنه فى الواقع يضم كل أفراد العصابة .. كل شركات الأدوية المنافسة لـ ( ميرك ) وشركة المبيدات إياها .. وبعض شركات التعدين .. طبعًا لن يكون هناك صحفيون أو ممثلون لمنظمة الصحة العالمية أو مسئولون من الحكومة هنا .. لابد أن خبراء إلكترونيات سيمشطون القاعة بحثًا عن بقّ ( أجهزة تنصّت ) .. أعتقد أنهم سيهنئون أنفسهم ثم يضعون خطة ضربة الخلاص coup de grâce التى تنهى مشروع عمى الأنهار .. »

ـ « ولماذا تخبرني بهذا ؟ »

ابتسم في غموض ، وقال :

ـ « إنهم جميعًا في سلة واحدة ! تصور هذا ! » .

ـ « فيم تفكر بالضبط ؟ »

دوّى صوت المضيفة يدعو ركاب خطوط ( أير بوركينا ) إلى الاتجاه للطائرة ، فهزّ رأسه يستحثني للنهوض ، وقال :

ـ « طائرتك .. إن ( سامبا ) يستحق مجاملة أخيرة ! »

وانصرف كعادته .. ثقيل الظل سمجًا لا يناسب لون ربطة عنقه لون قميصه .. وكان ينتوي عملاً خطرًا ..

★ ★ ★

وفي وحدة ( سافاري ) ـ بعد أسبوعين ـ تلقيت من ( إبراهيم مالك سامبا ) الخطاب التالي :

« عزيزي العاشر :

« كيف حالك ؟ لقد كتبت هذا الخطاب لأخبرك بأنني مدين لك باعتذار تأخر كثيرًا ..

« لقد وجد خبراء الإلكترونيات مئات من أجهزة التنصت فى حجرتى .. وأنا أعرف الغرفة جيدًا وأعرف أنه ما من متسلل يستطيع دخولها ، والسبيل الوحيد لذلك هو الباب .. ولا أحد يدخل من الباب دون علمى إلا ( ماريو ) ..

« الحق أنك كنت بعيد النظر .. وقد تمكنت من إلقاء الشكوك على عدد لا بأس به من رجال الفريق .. إما أنهم عملاء من البداية وقد تم دسهم على ببراعة ، وإما أنهم أبرياء تم إفسادهم بسطوة المال ..

« لقد تخلصت من هؤلاء جميعًا وقمت بتكوين فريق آخر أثق بكل رجل من رجاله ..

« ثمة شىء آخر مهم حدث ، ويبدو أنه من حسن طالعى .. لقد حدث انفجار مروّع فى فندق ( ماركوت ) فى ( واجادوجو ) ، ليطيح بعشرة من أعضاء مؤتمر ( القارة السوداء : المشكلة والحلّ ) ، وهو عنوان وهمى كما هو واضح .. لأن الاجتماع كان يضم أسوأ مجموعة من أصحاب الاحتكارات وأعدائى ..

أعرف دون جهد أنهم كانوا يناقشون المزيد من الخطط لتدميرى ..

« لقد كان الانفجار شنيعًا ، ولم يعرف أحد بعد سببه ولا الجهة المسئولة عنه .. لست قاسيًا ولو أعطونى قنبلة لأفجرها بنفسى فى هذا الحشد لرفضت .. إننى طبيب .. كافحت طيلة عمرى كى أمنح الحياة لا الموت .. لكنى ـ وليسامحنى الله ـ وجدت فى هذا الانفجار فرصة رائعة تتيح لى استرداد أنفاسى ، وتنظيم صفوفى ..

« أعرف أن أعدائى كثيرون ، وأن من ماتوا منهم ليسوا سوى الصف الأول ، وأنت تذكر ما قلته لك يومًا : إن الأمر أكبر بكثير من حبكة ( الشرير يتآمر سرًا ـ الشرير يفتضح أمره ـ السعادة تعم الكون ) ..

« فقط فى السينما ينتهى الشرّ بوتد ينغرس فى صدر مصّاص الدماء .. وتضاء الأنوار ونعود لديارنا راضين ..

« إنهم عائدون .. لكنى استجمعت أنفاسى ، ويوم نعيد توطين الفلاحين فى أراضيهم لن يجرؤ أحد على

إخراجهم .. ( الأونكو سيركا فولفيولاس ) فقط استطاعت ذلك .. لكنى سأظل أحاربها حتى تختفى من مراجع طب المناطق الحارة أو أختفى أنا ..

« أيها العاشر العظيم .. كنت أنت أكثر رجالى إخلاصًا ولم أفهم هذا إلا متأخرًا جدًا ، فاقبل اعتذارى .. وأعط البروفيسور ( بارتلييه ) الخطاب المرفق الذى أعتذر فيه عما كان منى ..

« ربما لا نلتقى ثانية أبدًا لكنك ستظل دومًا رجلى العاشر بالنسبة لى .

« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إبراهيم مالك سامبا »

★ ★ ★

أنهيت الخطاب ودمعت عيناى ..

تذكرت دموعى حينما اتهمتنى أمى فى طفولتى بأكل قطعة الحلوى الباقية فى الثلاجة ، ثم اتضح أن أخى ( هشام ) هو من فعلها .. عندها انتابتنى حالة عارمة من الرثاء للنفس حتى لم أكف عن البكاء طيلة ساعتين ..

ثم توالت الخواطر فى ذهنى .. يدوى صداها فى السكون كما يحدث فى الأفلام ..

★ ★ ★

ـ « إنهم جميعًا فى سلة واحدة ! تصور هذا ! »

★ ★ ★

ـ « إن ( سامبا ) يستحق مجاملة أخيرة ! »

★ ★ ★

ـ « هذا هو الدنمركى ( هانز سيلستين ) .. مرتزق قديم ومثير للمتاعب أينما حلّ .. يمكنه أن ينظم لك انقلابًا حيثما أردت ، أو يفجر لك أى مكان ، وفى أوقات الفراغ يمكنه أن يلعب دور المخبر الخاصّ ويراقب أعداءك .. »

★ ★ ★

ـ « لقد ساعدنى ( هانز ) فى الحصول على كل ما أقوله لك من معلومات .. ونصيحتى هى أن تقدّمه لـ ( سامبا ) .. »

★ ★ ★

ـ « أعرف أنك ترفض هذه الأساليب تمامًا ، لكن حين يتآكل القانون تغدو القوة هى القانون .. وصدقنى إن القانون متآكل تمامًا فى مشروع عمى الأنهار هذا .. »

★ ★ ★

لم تعد هناك شكوك .. أنا واثق مما حدث وأعرف جيدًا مدبر الانفجار والمحرض عليه .. لقد فعلتها يا ( كليف ) لكن أحدًا لن يستطيع إثبات الجرم ..

ما كنت لأفعلها لو كنت مكانك .. لكن .....

أرى بعين الخيال وديانًا خضراء يملؤها فلاحون سعداء .. لا أحد فيهم يحكّ جلده حتى يمزقه ، ولا أحد تدلت بطنه حتى لامست الأرض ، ولا أحد يجرّ شابًا كفيفًا من يده ، والنسوة العجائز لا يقضين حياتهن فى تقشير الفول السودانى ..

أرى إفريقيا جديدة .. وأرى ـ فوق كل هذا ـ رجلاً أسود لبشرته لون الباذنجان ، لا يملك سوى قميصين ، ولا ينام إلا خمس ساعات يوميًا .. ويعطونه كل عام

ثلاثين مليونًا من الدولارات ، لكنه يأبى أن يضع جهاز تكييف فى مكتبه الخانق ..

- أرى ( إبراهيم مالك سامبا ) ..

★ ★ ★

وفى معمل سرى من معامل ( لويزيانا ) كانت الطفرة الجديدة من ذبابة ( سيموليام دامنوزام ) قد أنهت أول جيل لها ..

لم يعد باقيًا إلا أن ينقل أحدهم هذا الذباب سليمًا إلى إحدى قرى الأنهار فى ساحل العاج .. ولكن متى وكيف ؟

للأسف يظل هذا بعيدًا جدًا عن نطاق عملنا فى ( سافارى ) .

( د/ علاء عبد العظيم )
( أنجاواندیری )

[ تمت بحمد الله ]

★ ★ ★




# سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حيا ولكى يظل طبيبا

# العاشر !

هذه حرب .. لكنها تختلف عن اية حرب اخرى .. إنها اقسى واقل رحمة واكثر ضررا .. ككل حرب اخرى تترك ملايين الضحايا والمشردين والمشوهين والجياع .. وككل حرب اخرى فيها طائرات تحترق وجواسيس وعملاء .. لكن العدو فى هذه المرة ليس سوى دودة صغيرة تفرض سيطرتها على غرب إفريقيا بالكامل .. (العاشر) هو كتيب خاص عن خطر فريد من نوعه ..



د. احمد خالد توفيق



العدد القادم
يوم ثارت الوحوش

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع